اقرأ

محمود العزب موسى

القارة العذراء

دار المعارف بمصر

القارة العذراء

محمود العزب موسى

الفارة العذراء

اقرأ ١٦٨

دار المعارف بمصر

اقرأ ١٦٨ - ديسمبر سنة ١٩٥٦



بين الشفق والغسق

ذهبت فترة حالمة من العمر مع الريح . ثارت ذكرياتها بين منابع النيل وبين مصباته الخالدة منذ زمن قديم ؛ وبقيت منها صور حية لطيفة تكاد تضيع هى الأخرى تحت عوامل الزمن ، وتكاتف الأيام ؛ ولولا أن النفوس تعيش على غذاء كما تعيش الأجسام ، لعاشت نفسى على الضنى والشقاء ، ولكن الأمل فى أروع مظاهره ومنابعه يشق الطريق أمام الروح فى ثبات وإقدام ، ويرفع فى الواحات الناضرة وفى الصحارى القاحلة مشاعل النور لا تحرق وإنما تضىء .

هذا الأمل هو الذى يدفع أولئك الذين يطوون أرواحهم على عزلة صامتة خرساء ، هو نفس الأمل الذى حدا بى إلى إصدار هذا الكتاب . . .

وليس الكتاب جديداً ، وليس فيه علم ، وليس فيه تاريخ ، وليس فيه جغرافية ، وليس فيه دراسة . . إنما فيه تسجيل لفترة حالمة من العمر لا تدخل فى حساب الزمن ، ولا تدنو منها

قلاقل الأيام ، ولا تنالها صروف الدهر ولا أحداثه . وقد كتبت الكتاب قبل ذلك ثلاث مرات ، ثم عدت فمزقت ما كتبت إذ أنني بدأت المحاولات تحت ظروف شتى لا أملك القوة التي تعينني على إخراجه على الوجه الذي أود وأريد .

وبدأت المحاولات بعد انقضاء رحلة طيبة بين البلاد التي يخترقها نهر النيل ، ويعيش على ضفافه فيها فريق من المهندسين المصريين الذين يقضون فترات طويلة من حياتهم وهم أقرب إلى الرهبان والناسكين الذين يؤثرون صوامع الماء على صوامع الدنيا الباهرة ؛ يقفون حياتهم على خدمة مواطنيهم ، بل خدمة الإنسانية عامة دون أن يقع في خلدهم أو يقوم في تصورهم أنهم يخدمون بلداً معيناً دون بلد . . ذلك أن النهر وهو يجود بمائه إنما يوزع خيراته على الناس كافة ، ويشرب منه العالم كله في أكواب مختلفات .

أليست الحضارة الإنسانية القديمة هي من خيرات النهر الخالد ؟ أليست مذاهب الروحانية الصافية هي من بعث هذا النيل ؟ أوليست هذه الخيرات المادية التي عاشت عليها أقوام في داخل القارة ، وفي خارجها هي من فيض الماء وقد جرى حيناً

صافياً نميراً ، وحيناً آخر مشحوناً بذرات الغرين . . إن روحانيته جديرة بالبقاء ، ومادياته جديرة بالتقدير .

ولم يكن التفكير فى الرحلة من خيال الصحافة المصرية ، فإنها — ولله الحمد — لا تفكر إلا على هدى ما تنفق وما يمكن أن تناله من نصيب مادى لقاء هذا الإنفاق . ولكنه جاء من تفكير وزارة الأشغال ، وقد رأت أن مصر تغالى فى دعوة الصحفيين الأجانب الذين تيسر لهم الإقامة حيناً من الدهر يزورون فى غضونه المعالم المصرية الحديثة والقديمة ثم يعودون إلى بلادهم فيكتبون ما يعن لهم من الملاحظات وينشرونها بين القراء ويذيعونها فى الناس .

تنفق مصر فى سبيل ذلك عشرات الألوف من الجنيهات ، فى حين أن المصريين أنفسهم أحوج الناس إلى التعريف ببلادهم ؛ فى حاجة إلى الحديث عن هذا النهر ، وعن الجهود المتصلة التى يبذلها جماعة المهندسين فى صمت وهدوء دون أن يعرف مصرى شيئاً عن هذه الجهود الضخمة الكبرى .

وبرغم هذه الصورة الكريمة فى تقدير المواطن ، وهى صورة جاءت من قبل وزارة الأشغال ، فقد قامت فكرة أخرى مضادة

لها ، هذه الفكرة الجديدة ما لبثت حتى صارت معارضة شديدة لقيام مثل هذه الرحلة بل حاربتها حتى لا تتم إطلاقاً .

ولم تكن المعارضة لغايات شخصية ، وإنما جاءت بدورها لغايات وطنية عليا .

ومن رأى هذه المعارضة أن أعضاء البعثة الصحفية يزورون البلاد التى يمر فيها النيل وهى بلاد تقع تحت حكم أجنبي مطلق يبذل كل جهده فى سبيل عدم زيارة أى مصرى لهذه البلاد . أو بتعبير أدق : إن هذه البلاد تقع وراء نطاق فولاذى ، ومصر لها مصالح مائية هامة تسير بها وزارة الأشغال فى قنوات من الهدوء وحسن السياسة ، وقد يبدر من المبعوثين الصحفيين ما يعكر الصفو فنعكر على الأرض المصرية ماء النهر ، لا سيما أن الصحفيين جماعة لا تقيدهم التقاليد الرسمية ولا التعليمات الحكومية وأنهم قوم تستهويهم الأنباء أيا كان النبأ . فنتائج الرحلة إذن غير مضمونة العواقب .

ولكن المعارضين ، والحق يقال ، لم يمانعوا فى أن تتم هذه الرحلة على نفقة الصحف المحلية وأن تيسر وزارة الأشغال فى حدود ضيقة أسباب نجاح البعثة ، وبذلك ينتفى عن مصر دليل

إثارة الرأى العام المحلى فى البلاد التى يخترقها النيل وهى خاضعة للنفوذ البريطانى تمام الخضوع .

تعددت المقابلات وتكررت الاجتماعات وانتهى الرأى إلى إتمام الرحلة ، ووقع الاختيار على كاتب هذه السطور أن يكون رائدها فى هذه البلاد الواقعة خلف الستار الفولاذى الشديد . وتم الاتفاق بيننا وبين وزارة الأشغال على أن تكون الرحلة فنية لا دخل للسياسة أو للدين أو للاجتماع فيها ؛ ووافق الأعضاء على ذلك عن رغبة مشكورة .

وقبيل أن تتحرك الرحلة بيوم ، استدعانى وزير الخارجية بالنيابة وزودنى سرا بطائفة من البيانات ، وقدم إلىّ قائمة بموضوعات على جانب خطير من الدقة رجاء أن أدرسها بصفة شخصية وأن أقدم له تقريراً ضافياً عنها بعد الوصول إلى القاهرة . وطلب منى كذلك أن أسارع فى العودة ؛ إذ أن مصر فى ذلك الحين كانت قد اعتزمت عرض قضيتها على المحافل الدولية ؛ ومثل هذا التقرير سيفيد المتحدث الرسمى فى هذه المحافل أكبر فائدة .

وبدأت أول صعوبة من جانب القنصلية البريطانية ؛ إذ

أننا تكتمنا الجانب الخاص بوزارة الأشغال من حيث الإنفاق على الرحلة ، وعرف أن نقابة الصحفيين هى التى أعدتها ، وكاد الأمر ينتهى إلى إخفاق لولا الحكمة التى تذرع بها الأعضاء فاجتزنا أولى الخطوات وشرعنا فى اتخاذ التدابير للسفر .

وبدأت حركات أخرى جديدة ، فقد أخذت المخابرات البريطانية تسعى جاهدة للوقوف على الأغراض الحقيقية لقيام مثل هذه الرحلة ، ولم تستطع إقناع نفسها بأن نقابة الصحفيين تدفع من صندوقها المتواضع زهاء خمسة آلاف جنيه لزيارة فريق من الصحفيين مناطق النيل المختلفة من المنابع إلى المصبات . فلم تفز المخابرات بجديد وبقيت عند الرأى الشائع بأن الرحلة فنية وأن غايتها رصد جهود المهندسين المصريين الذين يقضون حياتهم على طول شطئان النهر .

ووصلنا إلى مطار القاهرة الدولى ، وقبل أن تتحرك الطائرة بربع ساعة ، قامت عقبة جديدة ، فقد وقع رجال الضبطية القضائية على اسم زميل من أعضاء البعثة يشابه اسم أحد الذين انطوت عليهم قوائم الممنوعين من مغادرة البلاد . . وليست التهمة سياسية وإنما تهمة الممنوع أنه يتجر فى المخدرات ؛ وحاولنا بشتى

أنواع المنطق أن نقنع رجال البوليس بالخطأ الذى وقعوا فيه دون جدوى ؛ ذلك أنهم يحرصون تمام الحرص على أداء الواجب ؛ ثم عدنا إلى وزارة الداخلية وكان الليل قد قارب النصف ، وكل دقيقة تمر نسمع هزيم أجنحة الطائرة يثير فى الفضاء قلقاً نفسياً يكاد يحدثنا بأن جانباً من الخطة قد تهدم .

وقبيل موعد تحرك الطائرة بثلاث دقائق ، وصل أمر من وزارة الداخلية بسفر الأعضاء جميعاً تحت مسؤولية نقابة الصحفيين .

وهرولنا إلى الطائرة مسرعين واتخذنا أمكنتنا إلى جانب عدد كبير من الركاب من شتى الجنسيات فى طريقهم إلى جنوب أفريقية ؛ منهم سيدات ومنهم أطفال .

ودارت الطائرة دورتها حول المطار ثم توقفت قليلا ، وبدأت تدرج خفيفاً خفيفاً ، وتصعد إلى طبقات الجو فى هدوء وأناة ، ثم تلتهم هذه الطبقات وكأنها السهم المارق يأخذ طريقه إلى قلب الغاية . وبدأت أنوار العاصمة تلوح لنا ونحن فوق السحاب الأمل الكبير الجاثم فوق الأرض الطيبة .

ووزع علينا المضيف الأغطية ثم تمنى لنا ليلة سعيدة ذات أحلام سخية جميلة . وانصرفت إلى شيء من التأمل فدارت فى

ذهنى رؤوس المسائل الخطيرة التى حدثنى عنها وزير الخارجية بالنيابة ، ودارت كذلك فى الذهن الصورة الشائكة التى رسمها معارضو البعثة من قيام هذه البلاد وراء نطاق فولاذى شديد . وشاب التأمل لون من الخوف وقليل من القلق والاضطراب إذ أن هذه البلاد لا تتحدث الإنجليزية ولا الفرنسية ولا العربية وإنما لها رطانات خاصة بها ، والاتصال برجالها ضرب من العبث وضياع الوقت . وبات فى اليقين أن الإخفاق فى الوصول إلى التقرير الذى تمنته وزارة الخارجية هو من نصيبى المحقق .

وإذ أنا فى هذا الضرب من التأمل والتفكير ؛ أفاجأ بجديد ؛ ذلك هو إقبال المضيف على الركب وقد هجع نوماً ، فامتدت يده إلى الأنوار فأضاءتها ثم توجه بحديث لطيف يتلخص فى أن أحد محركات الطائرة قد تعطل عن العمل ، وأنها فى سبيل العودة إلى القاهرة من جديد .

ودب بين الركاب شعور غامض آخر جمع بين الخوف وبين الأمل فى الحياة ، وأخذوا يديرون أحاديثهم حول عناية الرحمن ، ثم شرع زميل من أعضاء البعثة يقص على مسامع الذين يشاركونه فى المقاعد الجانبية قصصاً مماثلة وقعت فى عالم الطيران ،

وكان نسج كل قصة ينتهى بخير بعد أن تكون المقدمات قد بلغت مبلغاً من الخطر والدقة .

وبعد ساعة ونصف ، وقد لاحت فى الخيال أجيالا وأجيالا ، ظهرت فى الأفق معالم أنوار العاصمة ، وقد انطرحت هادئة تحت بساط من الوهج ، وألقت الطائرة حملها من جديد فوق أرض المطار . . بقينا يوماً انتظاراً لإصلاح العطب .

وأجدنى فى حاجة إلى القول بأننى أعود إلى حالة فطرية كلما حاق بى ضيق أو وقعت شدة . ومن شأن هذه الحالة أن أتشبث بالتفاؤل والتشاؤم ؛ ويتراءى لى أن الأمور إذا بدأت مستعصية انتهت ميسرة ، وقد يكون العكس يحمل منطوق هذه القضية . وعلى هذا فقد أحسست فى أعماق نفسى أن البعثة لا بد أن توفق وأن النذر الأولى تدلنى على أن النتائج لا بد أن تكون طيبة وأن التوفيق مكتوب لها بإذن الله .

هذه صورة غير دقيقة لما حدث فى يومنا الأول ، وقد أدى القدر دوراً غير قليل بين غياب الشمس وبين عودتها ، بين الشفق وبين الغسق . . ومن الخير ألا أثقل على القارئ بتلوين لوحة عن المشاعر الذاتية التى لعبت بالإحساس عندما علم الركب بأمر العطب وقد تهددهم وهم فوق السحاب .

ثورة الطبيعة

أرادت شركة الخطوط الجوية البريطانية أن تدخل على عملائها شيئاً من المسرة ، فأعدت لهم رحلة لزيارة معالم القاهرة حتى لا يقتلهم الملل وهم فى انتظار إصلاح المحرك المتعطل ، فأتاحت لهم فرصة طيبة للوقوف على كثير من هذه المعالم فتركت فى نفوسهم أثراً طيباً للقاهرة .

ثم غادرت الطائرة مقرها عند منتصف الليلة التالية ، ووصلنا الخرطوم بعد الشروق ؛ وقضينا بمطارها قليلا من الزمن تزودنا فى أثنائها بحاجتنا من البترول . غير أن الذى لاحظناه هو تشدد السلطات المحلية فى الخرطوم فى الحيلولة بيننا وبين إخواننا السودانيين . إذ اقتضت التعليمات أن نبقى بعيداً فى جانب من مقصف المطار لا نبتعد عن منطقة معينة ولا يدنو منها أحد من رواد المطار فى باكورة الصباح .

وقد عجب ملاحو الطائرة من هذه المعاملة الجديدة ، إذ أنهم فوجئوا بأن يسرعوا بملء الخزانات بالبترول على وجه

الاستعجال ، وأن يسارعوا فى مغادرة المطار . . ظنوا أن فى الخرطوم حركة مقاومة للحكم البريطانى ، وأن السلطات المسؤولة تبغى عدم تسرب الأنباء إلى الركاب . ولكننا فهمنا أن المسألة غير هذا ، وأنها لا تعدو الأمر البسيط وهو رغبة هذه السلطات فى عدم اتصال أعضاء البعثة بأحد من إخواننا الجنوبيين إذ قد يقع لأحدهم موافاتنا بما يفيد البعثة فى صلاتها بالجزء الجنوبى من السودان .

وعدنا إلى أماكننا من جديد ، وقد شغلتنا مناظر الطبيعة ونحن نشهدها من فوق السحاب ، والطائرة تمرق كالسهم النافر حيناً فوق جبال ، وحيناً فوق تلاع مخضرة ، أو فوق مياه تنساب كأنها الحيات الرقطاء تسرح فوق بساط الأرض . . وبدت الأرض قفراء جرداء لا أثر للحياة فيها ، وإن غاب أديمها تحت غلالات من الماء .

وتركنا مطار الخرطوم ، ودرجة الحرارة عالية ، وخفت حدتها كلما ارتقت الطائرة طبقات الجو ، وتوقعنا جحيم المناطق الاستوائية حيث تكوى نار الخطّ الوهمى الوجوه وتشوى الأجساد ، وأخذنا نتندر بأى الألوان أجدر بالأعضاء ، بل برواد الجو

الذين جمعتهم جنبات طائرة على غير علم أو معرفة . ومثل هذه اللحظات التى يخلو فيها الإنسان إلى نفسه فلا يشغل باله بالمصير ولا يضنى روحه بالتذكر فى عياله وأصدقائه وإنما يفرغ همه إلى النادرة المستملحة أو الفكرة الساخرة المستظرفة ، لا يمكن أن يدخلها فى حساب العمر أو إحصاء ساعات الحياة ، وإنما هى حلم حالم وسراب رقيق يخدع الناس عن أنفسهم بأنفسهم .

وهكذا كنا ! !

ولكن ميزان التعادل فى الحياة يقوم من ناحيته بالتنسيق بين الضدين والتوفيق بين الاختلافين . وإذ صفت الدنيا على هذا النحو ، فشاعت المسرة فى نفوسنا ، واستوينا على بساط من الراحة النفسية ، أخذت الطائرة تعلو وتنخفض وهى تعالج اتزانها فى منطقة مفرغة من الهواء ، وأزعجت « المطبات » الهوائية الرواد فاصفرت وجوه ، واضطربت أعضاء ، وخارت قوى ، وتحرك فريق إلى دورة المياه يخلى معدته مما فيها من طعام وشراب. وطالت بنا الفترة ؛ كانت قصيرة ولكننا تخيلناه جيلا من التعب والنصب والإرهاق والعلل .

والضالون فى متاهة يكدون أبصارهم فى البحث عن شعاع ؛

والغارقون فى اليم يسعون إلى رقيق قشة تنقذهم من الموت . .
وهكذا تعلقنا بأهداب الأمل ورحنا نتابع مسطحات الأرض
لعلنا نرى فوقها حركة لإنسان أو ظاهرة لعمران .

واشتدت الأزمة ثم انفرجت فلاحت عن بعد أدغال وأدغال
ثم أكواخ جميلة متناثرة بين الآجام ، ومتصلة فى سلسلة لطيفة
على هضاب غير عالية ، وشرعت الطائرة تلف حول نفسها ،
وتدور على محيط دائرة مرسومة فوق بسطة من الرمال الصفراء ،
وهى تقرب من الأرض شيئاً فشيئاً إلى أن لمست عجلتاها الأرض
فتنفس أعضاء البعثة الصعداء وحمدوا الله على سلامة الوصول .

وفتح الباب ، ونحن فى ارتقاب ثلاثة أشياء متوقعة :
حرارة خط الاستواء ، ومندوب الرى المصرى ، وأصدقاء أوغنديون
وطنيون تمت الاتصالات السرية بين القاهرة وبين كامبالا
العاصمة التجارية وغير الرسمية لأوغندة .

ولكن الريح أتت بغير ما تتوقعه السفن .

كانت الطبيعة ثائرة فمزقت السحاب فهطلت الأمطار
الشديدة وكان الجو رائعاً . ووقف إلى جانب الطائرة حارس
وطنى مدجج بالسلاح وهو يحدج كل هابط بنظرة قاسية

لا تشف عن معنى الراحة النفسية بضيوف ينزلون على أرض الوطن الأوغندى ، وكأنه يتمنى أن يغمس نهاية رمحه فى كبد كل واحد . ولكنه ظل فى مكانه لا يتحرك فلا الأمطار السخية تزعزعه من مكانه ولا الريح القوية العاصفة تهز قليلا من كيانه . إلا الريشة الحمراء المرشوقة فوق قبعته اللطيفة وهى ريشة فى مهب الريح بللها المطر الشديد .

ولا يتحدث الحارس لغة ما ؛ غير هذه الرطانة الخاصة بسكان هذه البلاد . وكان على علم بوجوه الوافدين إلى بلاده فقد عرفهم دائماً من أبناء أوربا أو من الهنود الذين يزورون تلك البلاد لأغراض الاتجار والاقتصاد. ولعلها كانت التجربة الأولى لهذا الحارس فقد أتى بحركة يدوية وكأنه يسألنا من نكون . أقبلت عليه بابتسامة صادقة وقلت : مصرى « إجبشيان » فأسرع إلى سلاحه ووضعه إلى جانب الدرج واحتضننى فى شوق وصدق وشاعت على أساريره ابتسامة وديعة حلوة . . تبادلنا القبلات ؛ إنها قبلات قلوب وحدت بينها أسباب الحياة ، ووثقت بين عرى الألم الدفين فى نفوس تعيش عند المنبع وأخريات تعيش عند المصب . وقد غرقنا فى أحلام حلوة ولذيذة وأسفنا لأننا عدمنا

وسائل التعبير والتفاهم ، ولم نعن قط بهذه الأمطار العاتية التى تغرق الحياة من حولنا ولا تلك الرياح الهوج تزأر فى عنف وشدة فى الفضاء وفى الأجام الممتدة على قرب قريب .

وهرولنا مسرعين إلى الدائرة الرسمية وقد قامت مبانيها على حافة ميدان المطار الفسيح وهى دوائر الجمرك والحجر الصحى والبوليس . . وقد سبقنا إليها بقية الركاب وهم أوربيون ينظرون إلى الموظفين الوطنيين نظرة تفيض بالكبرياء والترفع وهم — الوطنيون — يهرعون إلى تدبير شؤون هؤلاء الأجانب فى عجلة وسرعة بحيث لا يقضى أحدهم أمام الموظف المختص سوى ثوان معدودات . وقد فرحت بهذا النظام إذ أننى لم أجد مثيلا له فى البلاد المتعددة لا فى أوربا ولا فى آسيا ولا فى أفريقيا حتى ولا فى بلدى الذى أحبه وأقدسه .

وجاء دورنا فانقلب الحال غير الحال .

غاضت الابتسامة الحلوة وجفت ؛ وماتت الحركة السريعة وفنيت ، وساد الدوائر الثلاث عبوس وتلكؤ ، وشرع الموظفون يدققون فى بحث جوازات المرور ، ويفتحون الحقائب واحدة بعد الأخرى ولا يكتفون بالدقة العادية وإنما يحاولون إشعارنا بأننا

غرباء غير مرغوب فيهم وأننا نحمل فى نفوسنا شيئاً ما . . .

ما هو ؟ وكيف يكون ؟ ونحن لا نعلم الوسيلة المجدية للجواب .

ولأول مرة أحسست عبء المسؤولية الملقاة على كتفى ، وزاد من خوفى وقلقى أننى لم أجد مندوب الرى المصرى ولم أجد أحداً من الوطنيين الأوغنديين الذين اتصلنا بهم سرا بطرق محكمة . وكلما تحرك عقرب الساعة من دقيقة إلى أخرى بدت الأجيال الثقيلة تقبع فوق صدرى حتى ضاقت الدنيا الواسعة على رحابتها فى هذه البلاد أمام نظرى . ورجال الدوائر الرسمية ماضون فى البحث والتنقيب علهم يقعون على شىء يطفىء حرارة تعتمل فى نفوسهم وفى صدورهم .

وألقيت نظرة سريعة إلى الخارج فرأيت السيارات قد انطلقت بالسادة الركاب ، وساد المكان سكون موحش ، وبقينا فى عزلة تحت رحمة هؤلاء السادة من موظفى الحكومة الأوغندية . وقد حاولنا بشتى الوسائل توجيه أسئلة إليهم فلم نحظ منهم بأى جواب .

الصمت المطلق ولا شىء غير الصمت .

٢١

عزيز على النفس أن تشعر بالمذلة فى غربة بعيدة وبين قوم لا يرغبون فى رؤية هذا الغريب . . فى مثل هذه اللحظات تثور النفس وتثور وتلوح فى الأفق حياة الوطن : الصاحبة التى تأوى ، والأولاد الذين يعول ، والأصدقاء الذين يحب ويخلص ، ويظل الغريب فى دوامة عنيفة من الحقد والبغض والعزوف عن الطيب من معانى الأشياء .

المعتقل الذهبي

وإذ نحن على تلك الحال ، يدلف إلى داخل الدائرة الرسمية شيخ جاوز الستين ، موفور الحركة ، هادئ الطبع ، لطيف المعشر ، أغبر الشعر ، وأقبل علينا فى ابتسامة ناضرة وهو يسأل عنى ثم قدم نفسه : مستر بامبرذج مفتش الرى المصرى فى السودان الجنوبى وقدمت إليه أعضاء البعثة واحداً بعد آخر ؛ ورأيت حالة جديدة بين موظفى الدوائر الرسمية إذ عادت إليهم ابتسامتهم وعادت إليهم حركتهم ، وأنجزوا مهمتهم فى سرعة وعجلة وأقبلوا من أنفسهم يجيبون على الأسئلة التى طرحناها وماتت على شفاههم الإجابات .

والتفت إلى مستر بامبردج وقال : لقد رأيت رجلا يسأل عنك فى الخارج لم أعرفه من قبل ، فإن كانت لك رغبة فى مقابلته فأنا أستطيع دعوته .

وقد أبديت سرورى بلقاء هذا الإنسان .

وخرج مفتش الرى البريطانى وعاد ومعه فتى فى حدود

الخامسة والثلاثين ، وهو شاب سريع الحركة ، مكتنز اللحم ، كثير الكلام ، وقدم نفسه فى أدب ولطف : مستر ساندز ضابط الاتصالات الخارجية بالحكومة الأوغندية .

وقدمت إليه أصدقائى أعضاء البعثة واحداً واحداً ؛ وشرع ساندز يرحب بنا باسم الحكومة المحلية ويضع نفسه تحت تصرفنا إذ قد نكون فى حاجة إلى خدمة ما . وأضاف قائلا : إننى تحت تصرفكم وإن الحكومة تعلق أهمية كبرى على زيارتكم وهى ترجو أن تقدموا أوغندة على الصورة الصادقة إلى قراء العربية فى بلادكم وفى العالم العربى كله . . إن الوحدة الإنسانية هى التى تربط العالم كله بعد الحرب العالمية الثانية ولا بد أن الفلسفة التى تحكم هذا العالم هى فلسفة الأخوة والحب والصداقة الطيبة . نحن فى حاجة إلى رسل ودعاة يترجمون روح العالم الجديد إلى المواطنين فى كل مكان .

وقد أطلقنا على كلمات ضابط الاتصالات الخارجية ، وهى وظيفة مهمة فى حكومة أوغندة ، إذ أن موظفى هذه الدائرة بمثابة عنوان الحكومة وهم مترجمو فلسفة الحكم الأجنبى فى بلاد تحتاج إلى أوصياء يعرفون مصالح هذه البلاد ويعملون على رفع مستواها

ويرقون بها مدارج التقدم والحضارة أطلقنا عليها خطاب العرش .

وشرع سائقو السيارات يضعون الحقائب فى سيارة كبيرة يقودها سودانى من الشمال هو « إبراهيم » وهو رجل جاوز الخمسين بسنين عليم بالحياة فى أواسط أفريقية وخبير بالطرق والمواصلات خدم الحكومة المصرية أكثر من ثلاثين عاماً . وحملت السيارة الحقائب وانطلقت فى سبيلها إلى الفندق .

ودعانى بامبردج إلى مصاحبته فى سيارته وهو يقودها بنفسه ، ودعا ساندز اثنين آخرين لمزاملته فى سيارته ويقودها سائق وطنى أوغندى ، وركب ثلاثة آخرون فى سيارة خاصة ، وبدأ ساندز يطوف بنا مدينة عنتيبى وهى العاصمة الرسمية لأوغندة ويقيم فيها الحاكم العام . ولا يسكن هذه المدينة أحد من الوطنيين وإنما يستقل بسكناها رجال الاحتلال الذين يتولون أمر هذه البلاد . وهى مؤلفة من فيلات مستقلة تحيط بها حديقة غناء تفيض بألوان الزهر والورد ، وتوفرت فيها أسباب الراحة والنعمة ، والفيلات على الطراز الإنجليزى التقليدى وهو طراز يدخل فى النفس معنى التهيب ويدفع إلى العين فكرة الرسوخ والثبات . وظلت السيارات تدرج على طرق مرصوفة ونظيفة قد شقت بين

أشجار باسقات . وحدثنا مرافقنا ساندز عن جمال الحياة فى أوغندة وكان يتغنى بمباهجها ويقول إن الله جلت قدرته قد نفث فيها من روحه وأنه اختصها بجانب كبير من جمال ذاته العلية .

وكنت مشغولا بأمر آخر وهو معرفة أصدقائنا الوطنيين الذين اتصلنا بهم من القاهرة ، إذ أن الاتصال بهم ضرورة ملحة وهو ما حرص عليه وزير الخارجية بالنيابة فى القاهرة . وكان من الحمق بطبيعة الحال أن أرجع فى هذا إلى بامبردج أو ساندز ؛ فكل من الرجلين إنجليزى وطبيعة الاتصال طبيعة وطنية بحت تقوم على تبادل الآراء فى التوفيق بين العناصر المكافحة فى القارة الأفريقية وهى قارة بكر وعذراء . هذه طبيعة تتنافى وقيام الاحتلال البريطانى لهذه القارة . وكان علينا أن نتصل بأصدقائنا الأوغنديين بعيداً عن أعين الرقباء وأعين رجال الاحتلال .

وفطنت الحكومة الأوغندية إلى أن وراء البعثة شيئاً ، وبخاصة أنها جاءت فى أيام عرض القضية المصرية على المحافل الدولية وهو عرض أخذ صورة العنف وتبادل الاتهامات من الجانبين المصرى والبريطانى وأحيط فى الوقت نفسه بمؤامرات

واسعة من جانب إنجلترة وراء ستار هيئة الأمم المتحدة .

وهى تسمية لطيفة ، فقد اتحدت الأمم ضد ألمانيا وقد زالت من الوجود ، وضد إيطاليا وقد قلمت أظافرها ، وضد اليابان وقد حطمتها القنبلة الذرية وسلكت ملايين البشر فى سلك العبودية والمذلة . اتحدت القوة القوية ضد الضعف الضعيف .

وما علينا من هذا ولنعد إلى البعثة وقد قضت فى عنتيبى بضع ساعات لم تمكن من مشاهدة المعالم ولم يزر الأعضاء مكتباً واحداً بدعوى أن ساعات العمل قد انتهت . ثم سرنا فى طريقنا إلى كامبالا وهى العاصمة التجارية غير الرسمية لتلك البلاد وهى أكبر المدن الأوغندية ، تنتظم أعداداً من الوطنيين ومن الجاليات الأجنبية ولا سيما الجالية الهندية . ودخلنا كامبالا وقصدنا إلى الفندق الكبير وهو فندق حديث العهد بنى على طراز جميل حيث ضمت كل غرفة به سريراً ثم دولاباً وألحق بها حمام تجرى فيه المياه الساخنة والباردة .

وحرص ساندز على أن يبعدنا عن الوطنيين فى دقة ورقة وفى أدب ولطف وكياسة ، دون أن يشعرنا بأن السلطات المحلية لا ترغب فى إقامتنا طويلا فى هذه البلاد . ووجد ضابط

الاتصال فى أعضاء البعثة مرونة شرقية فوتت عليه رغبته فى استشفاف الغاية من زيارة أوغندة إذ لم يسبق لمصر أن فكرت فى مثل هذه الزيارة .

ولساندز عين صقر لا تنام أبداً وإنما تدور دائماً فى الفضاء وفى الخفاء . أو ذئب ينام بإحدى مقلتيه ، ويتقى بالأخرى العوادى فهو يقظان ونائم . ولكنه – ساندز – يضبط أعصابه ويعرف كيف يخفى ما يدور فى ذات نفسه ؛ ويبدو لنا بريئاً لطيفاً ، كل غايته أن يفيد الأعضاء بالبيانات الصحيحة والمعلومات السليمة .

وتناولنا طعام العشاء ومعنا الصديقان الإنجليزيان ، ولما انتهينا منه لاح لأحد أعضاء البعثة أن يخرج إلى الطريق العام ليشهد المدينة الجديدة التى حللنا بها منذ لحظات . فإذا بضابط الاتصالات الخارجية يهب من مجلسه مذعوراً ويهرول خارج الفندق ليعيد صديقنا إلى حظيرته وهو يؤكد لنا أن سلامتنا مسؤولة منه ويخشى أن يضل الطريق أو يصيبه أحد الوطنيين بمكروه إذ أنهم قوم يعكفون على الشراب إلى درجة الجنون . . . والسكران أخو المجنون .

وقد تحدثنا فى تلك الأمسية فى كل شىء إلا فى السياسة أو ما يدور فى القريب منها . تحدثنا فى الأدب وفى الاجتماع وفى المذاهب الفكرية وفى الصراع بين العلم والدين . وتحدث ساندز عن أفريقية الشمالية وعن كل صغيرة أو كبيرة تتصل بها إلا عن الروح الوطنية أو الفكرة العامة السياسية فى هذه البقاع النائية من الأرض .

وحديثه ممتع دون شك وعلمنا منه أنه يجيد الرطانات المختلفة فى هذه البلاد ، ذلك أن السياسة البريطانية ترمى إلى أن يتعلم الموظف الإنجليزى رطانات القبائل المتعددة فى البلاد المحتلة ، وهى تمنح الذين ينجحون فى تعلم كل رطانة خمسة جنيهات علاوة على راتبه الشهرى ، وبهذا يضمن الموظف زيادة مرتبه كلما أتقن رطانة . وفوق هذا فإن الحكومة تمنح الناجحين فى كل امتحان مكافأة مجزية عما أنفق فى سبيل هذا التعلم .

وانتهت هذه الليلة ، وبعد أن صعدنا الطابق الأعلى رأينا أن نعود إلى الطريق العام نتلمس فيه جديداً يفيد الغريب ثم يفيد الصحفى ، إذ أن سيرنا على الأقدام ضرورة ملحة بعد أن وثقنا أن ساندز قد أستعان بأدبه وظرفه وكياسته على اعتقالنا .

داخل قفص ذهبي لا نستطيع الفكاك منه أو الخروج إلى عالم الحرية إلا إذا أعلنا راية العصيان .

ومعنى رفع راية العصيان هو إحباط الجانب الأهم من مأمورية البعثة وهو الجانب السرى الخاص بالاتصال بإخواننا الأوغنديين . وما جدوى المناقشة فى أمر معلوم لديك ولا حيلة لك فيه وقد سلمتنا السلطات إلى رائدين أحدهما مصرى الوظيفة وإنجليزى المولد والجنسية والثانى لا سلطان لنا عليه ، وكيف نصل إلى غاياتنا ونحن فى بلد ينفر من لقاء الغريب خوفاً من حكومة الاحتلال المحلية وفضلا عن ذلك لا يعرف أهله لغة غير لغاتهم الخاصة وقد اصطلح الناس على وصفها بالرطانات ؟

كان كل شيء يمضى فى هذه الحدود . . حدود الجمال المبسوط على كل مكان ؛ وحدود هذا السجن الرقيق يقوم عليه سجانان على شفاههما ألفاظ من العسل ، وفى أيديهما قفازان من الحرير ، وكأنهما بدورهما وقعا فى هذا المعتقل الذهبي ويرغبان فى الفكاك من الأسر ويرجوان أن تنتهى أيام الزيارة على خير .

وقد حالفهما القدر إذ أن الطائرة لم تصل فى الموعد المضروب بل تأخرت يوماً وبعض يوم ، وقد اعتبرته الحكومة الأوغندية من

حساب الإقامة فى هذه البلاد ، وأدخلت فى اعتبارها نهاية الموعد المضروب من قبل لمغادرة أوغندة دون نظرة إلى تنفيذ البرنامج الذى وضعته هى من قبل .

وهكذا كانت الأيام القصيرة عند أعالى النيل تفيض بالكثير من ألوان الحياة التى مهما بالغ الواصفون فى تصويرها لن يستطيعوا الترجمة الصادقة عن هذا الجمال الرائع .

ظلال من الماضى

لعبت الأقدار دوراً فى تأخير وصول الطائرة فى موعدها المقرر من قبل ، واضطرت السلطات المحلية إلى ضغط البقايا الزمنية بحيث يتاح لنا مشاهدة ما يمكن مشاهدته من المعالم الأوغندية . وفى سبيل ذلك ، كنا نغادر فراشنا عند الفجر ثم نتناول طعام الإفطار وننطلق بالسيارات تجوب المشارق والمغارب والمشامل والمجانب .

ضربت بنا السيارات صوب « جنجا » وهى شىء بين المدينة وبين القرية لنشهد الأعمال الجارية فى مساقط أوين ولنرى منابع النيل ومنحدرات ريبون . والسيارات تتدافع فى طريق طويل وليس لدينا فسحة من الوقت للوقوف إذا عنّ لأحدنا أن يسأل سؤالا أو يبحث مسألة غير أن الظاهرة التى استرعت النظر هى ظاهرة فريق غير قليل من المواطنين الأوغنديين وقد تميزوا عن غيرهم من إخوانهم فى الجنسية والملة والدين بارتداء الجلباب المصرى وبالطربوش المصرى وهم يسرفون

فى اختيار ألوان الطربوش إذ أن منهم من يضع طربوشاً لونه أحمر والآخر أسود والثالث أبيض والرابع أخضر ، وقد يصل طول الطربوش أكثر من نصف متر وجميعها بلا أزرار .

وقد رجعت إلى الثقات بين الباحثين فقالوا إن هؤلاء الناس هم أحفاد الجيش المصرى عند ما وصل إلى منابع النيل على عهد إسماعيل وهم مسلمون وإن كانوا لا يتكلمون اللغة العربية ولكن الطابع المصرى ما يزال ظاهراً بين هؤلاء الناس . ومن طبيعتهم أيضاً الغيرة المجنونة وذلك أمر غير مشاهد ولا ملحوظ فى هذه البقاع النائية عن المدنية واحتفاظهم بكرامتهم على هيئة تامة وهى صفة تلاصق المصريين فى الغالب الأعم .

وحدث أن دخلنا غابة دكناء لنرى مشهداً لشلال ينحدر من أعلى وهو من المناظر الرائعة حقاً ، يجتذب الشعراء والأدباء والقصاصين الذين يزورون تلك البلاد وقد اتخذ غير واحد منهم هذا الشلال موضوعاً لعقيدة أو قصة فرأينا اثنين من أحفاد المصريين يجلسان عند قدم المياه الجارية فوق الأرض والمتدافعة من قمة الأجمة السوداء ، وهما يحفنان الماء ويرشان به أقدامهما .. كانا فتى وفتاة فى أيام الخطوبة يتجاذبان حديث الحب والهيام .

وأردنا التقاط صورة لهما وهما فى أحلامهما الرائعة الحلوة وعلى هيئة جميلة من الحب الجميل .

وما كاد الفتى يرى أن العدسات وقد صوبت نحوهما حتى انتفض ثائراً مذعوراً وحاول فى ثورته تحطيم الآلات لولا تدخل ساندز فى الموضوع وإفهام الفتى أن الذين يلتقطون هذه الصورة ليسوا أجانب وإنما هم مصريون جاؤا البلاد زائرين ؛ وهنا تهلل وجه الفتى والفتاة وأقبلا يسلمان على المصريين بحرارة والبشر يعلو قسمات وجهيهما . وترجم لنا ساندز حديث الفتى إذ قال : إننى أتمنى ألا يلتقطوا لنا أية صورة حتى لا يرى زوجتى المقبلة غريب فى بلد أجنبى : ذلك أن الأجانب يدرجون على التقاط المناظر التى تسيء إلى سمعتنا فى الخارج . أما والذين يرغبون فى ذلك هم أبناء أجدادى من المصريين فلهم هذا الحق ؛ وقد رأينا احتراماً لشعوره عدم التقاط صورة ولما علم بذلك ازداد سروره واغتباطه وأكد لمحدثه أن هذه أريحية مصرية وتلك هى الأخلاق المصرية.

وترك الزمن على ضفاف بحيرة فيكتوريا ألواناً شتى من الطابع المصرى الصميم . . الآلات الموسيقية هى نفس الآلات الموسيقية الشائعة فى الريف المصرى ، وحياة الكوخ الأوغندى

عند هذه البحيرة هى نفس الحياة التى يألفها سكان الريف المصرى ولا سيما فى شمال الدلتا . و إلى جانب هذا وذاك يلمس الإنسان مجموعة من الطبائع والعادات والأخلاق والتقاليد ما زالت تواجه بعد الزمن وتبقى شامخة على الأيام .

ولا ريب فى أن الفراعنة قد وصلوا إلى هذه المناطق البعيدة ، وأن القول الذى نسمعه من أفواه العجائز وهو أن النيل ينبع من الجنة قول له سنده . ذلك أن منطقة البحيرات التى تمد النهر بالسيال المائى غير المنقطع تحفها أدغال وغابات وأجسام تناهت فى الروعة وتعالت فى العظمة ، ومن بينها شجيرات تحمل ألواناً من الزهر البديع المبسوط على مساحات بعيدة . ويسرح فيها حيوان مختلف فإلى جانب زئير الأسود مواء الهررة ، وإلى جانب عواء الذئاب صراخ الفيلة ثم زقزقة الطير وشقشقة العصفور وهكذا. وفوق هذا كله فإنها تخرج الحب وتنتج الخير . وهى صورة لفردوس جميل .

ولا ريب كذلك فى أن الحضارة الفرعونية قد تركت ظلالا ملحوظة فى حياة أوغندة القائمة عند مصبات النهر وهى وإن كانت ظلالا خفيفة لا تعدل تلك الظلال الملحوظة فى الوادى

ولا سيما فى مناطقه الشمالية إلا أنها ظلال قوية تميز هذه البقعة عن غيرها من بقاع أوغندة . وهى ظلال ليست مادية فقط وإنما هى ظلال من التقاليد والعادات والأخلاق ، ومزيج من حضارة ثقافية وعقلية بقيت متماوجة فى تلك الحياة البدائية التى احتفظت بمقوماتها على اختلاف العصور والدهور .

وذلك أمر جدير بالتقدير والإعجاب فإن سكان هذه المناطق يعيشون حقا ، تحت أسلوب معين من الحكم ، يبعدهم عن نور الحياة الإنسانية والحياة الكريمة . وعلى الرغم من هذا الأسلوب فإن قوة الحيوية المتدفقة فى مشاعر السكان تدعو إلى أمل كبير ورجاء أكبر فى الوصول إلى النور والأخذ بأسباب الاستقلال .

وأول شىء يقع فى ذهن الزائر يجعله مؤمناً بحقيقة كامنةفى نفوس هؤلاء الناس هو إيمانهم القوى بوجودهم فى الحياة طاقة إنسانية لها إشعاعها ولها مقوماتها ولها إمكانياتها . ثم تمسكهم القوى بحقهم فى طبائع التقاليد التى أملاها الزمن ، وهى تقاليد وإن بعدت تمام البعد عما يقع فى تصور غيرهم فإنها ضرورة ملحة تدعوهم إلى التمسك بها حتى يكتب لهم الفوز فى كفاحهم

من أجل استقلالهم . وفى رأيهم أن هذا الطابع البدائى هو من أقوى الدوافع بل إنه يحفزهم على المضى قدماً فى سبيل استخلاص بلادهم من ربقة العبودية والتحرر من هذا الأسلوب الذى حكموا به .

ويوم أن يكتب لهم الفوز وتصير مقدرات الدولة فى اليد الوطنية البحت، يوم أن يدخلوا فى أنواع التدرج والتطور صوب أساليب العيش والحياة وفقاً لما تمليه طبائع الأشياء . .

فى ضيافة الزمن

كان علينا أن نمضى إلى منابع النهر ، أو جنة الفردوس يتدفق منها ماء جعل منه كل شىء حى . ووقع فى رأس قائمة الزيارات زيارة الأعمال الجارية لإنشاء مساقط « أوين » ؛ وتقوم هذه الأعمال فى بلد عرف باسم « جنجا » وسرنا فى طرقات مرصوفة رصفاً حديثاً اقتضته الضرورات الحربية فى أثناء الحرب العالمية الثانية .

وأخذنا نفكر فى هذه الزيارة حيث تتاح لنا الفرصة للوقوف على نفس الأمكنة التى وصل إليها رجال الكشوف من الخالدين على التاريخ وعلى الزمن . وليس أمتع بطبيعة الحال من أن يعيش الإنسان فى ضيافة الزمن حيث يراجع صفحات التاريخ التى سطرت بالجهد والدم والعرق . ولا سبيل إلى المقارنة بين جماعة انتقلت إلى مخارج النيل بالطائرات وبالسيارات وبين أولئك الذين انتقلوا إليها عن طريق النهر نفسه على ظهور قوارب بدائية وسيراً على الأقدام ومخترقين حياة غريبة فى قبائل لها تقاليدها

ولغاتها الخاصة لا يعرف ناسها شيئاً عن الرجل الأبيض أو الرجل الغريب .

وفى أثناء الطريق وقع نظرى على عدة مبان نسق بعضها على هيئة فيلات ، والبعض الآخر على هيئة المكاتب الرسمية فى بلد متحضر ، وعلى هامشها الأخير قام بناء ضخم أنشىء على طراز حديث . وسورت هذه المنطقة حدائق جميلة وحقول ممتدة إلى بعد غير بعيد .

وسألت عن هذه الأبنية وتحدث رائد البعثة مستر ساندز فقال إنه معهد أبحاث هندى ! !

انتقل الهنود أفراداً إلى أوغندة منذ قرن ويزيد وتاجروا مع السكان الوطنيين ، وكانوا موضع ثقة أهل البلاد لما للهنود من قدرة على أساليب التجارة وأساليب المعاملة الطيبة . اطمأن الأوغنديون إلى الهنود لأنهم يسلكون المسالك الحسنة فلم يتدخلوا أبداً فى عقائد أهل البلاد ولا فى تقاليدهم ولا شؤونهم الداخلية . واطمأن الهنود كذلك إلى الأوغنديين الذين أخلصوا فى المعاملة صادقين غير مرائين أو غاشين وبذلك سارت الأمور بين الوطنيين والوافدين سيراً حميداً .

وقد شجعت هذه الحالة الهنود على ارتياد هذه البلاد حتى تجمعت منهم جالية يزداد عددها يوماً بعد يوم حتى بلغ عددهم عشرات الآلاف بل مئاتها . واحتفظت الجالية الهندية فى نفس الوقت بطابعها الخاص فى العبادة والأخلاق والتقاليد ، وتجمعت فى أحياء مستقلة خاصة بهم ؛ وذلك حرصاً منهم على التزام الدستور الذى اتخذوه فى الصلات بالسكان الوطنيين .

وظلت هذه هى القاعدة المرعية حتى الآن فلا يقحم الهندى نفسه فى أى شأن غير الشؤون التجارية البحت وفى حدود المحافظة على العلاقات التقليدية والشعور الوطنى . ويدأب الهندى على تجارته فى صدق وذمة وأمانة بعيداً عن المعترك السياسى أو النزعات الداخلية التى تحدثها طبائع الأشياء بحكم التطور الزمنى .

ورأى زعيم الجالية الهندية أن مستقبل أعضاء الجالية مرتبط بهذه الأرض الطيبة التى عاش على أديمها أسلافهم وولد عليها أشقاء وأحفاد وهى وطنهم الأول والأخير . ورأى أن من ضمان هذا المستقبل إنشاء معهد أبحاث أوغندى ! الغاية منه أن يفتح أبوابه للعلماء والباحثين حيث توفر لهم أسباب الراحة وتوضع تحت تصرفهم المواد الخام التى يحتاجون إليها فى الدرس والبحث ،

ويجرى عليهم العطاء المجزى حتى يشعر أحدهم أنه يعيش فى صومعته العلمية عيشة رغد وسخاء . وتدور جميع بحوثهم ودراساتهم حول أوغندة دون غيرها وهى بحوث تشتمل كل شىء فى هذه البلاد . وإذا ما انتهى أحدهم إلى نتيجة عرضت على أهل الاختصاص وأعلن عنها فى الدوائر العلمية إلى أن تصير حقيقة مقررة .

وبعد هذا تعرض على لجنة هندية عليا ومن حق هذه اللجنة رسم السياسة التى تتبع فى استغلال مرافق البلاد على نهج علمى يفيد الجالية الهندية ويفيد البلاد الأوغندية نفسها فى وقت واحد. ويطلق الإنجليزى على هذه الحالة « الاحتلال الفنى » . ومن الطريف حقاً أن أعضاء الجالية لا يخرجون إطلاقاً عن السنة التى يرسمها زعماء الجالية بل إنهم ينفذون السياسة التى تفرض عليهم فى حدود الذمة والواقع .

وأحست السياسة البريطانية فى تدفق الهنود على أوغندة خطراً يتهدد الاحتلال البريطانى فوضعت قواعد صارمة من شأنها الحد من تدفق الهنود أو هجرتهم إلى أوغندة اكتفاء بالوضع الراهن والحق المكتسب .

ويلمس الهنود روح العداء المستتر ولكنهم يلتزمون أبداً نفس الدستور الذى ساروا عليه منذ أجيال .

ولا ينكر البريطانيون الصفات العالية التى تميزت بها الجالية الهندية ويضربون لذلك مثلا يتصل بزعيم هذه الجالية إذ أنه يملك مساحات شاسعة يستغلها فى زراعة القصب والشاى والبن ويستخدم عمالا وطنيين وموظفين وطنيين إلى جانب الاختصاصيين من الهنود .

وهو رجل على ثرائه يعيش عيشة هادئة متواضعة لا فرق بينه وبين العامل وإنما يضرب المثل فى أن الأرض الطيبة ملك للإنسانية . وبهذا فإنه فرض على نفسه أجراً يومياً معقولاً جدا وأنشأ للعمال مساكن نظيفة حديثة وأجرى عليهم الأجور التى ترغبهم فى التفانى فى خدمة الأرض . ووظف عدداً من الأطباء الذين يعالجون العمال وعائلاتهم بالمجان . ويمنحهم إجازات أسبوعية وسنوية يخلدون فيها للراحة والاستجمام .

سار زعيم هذه الجالية على تلك الخطة فى حين أن عمال الحكومة لا تصل جيوبهم سوى بضعة قروش لا تتجاوز أصابع يد واحدة ويرهقون بالعمل دون أن يقابلوا بأى لون من ألوان الشكر .

وقطعنا الطريق إلى جنجا وإذ دخلناها تحت وهج الشمس المحرقة بدأت عاصفة من المطر الشديد تجتاح هذه المنطقة فى عنف وشدة وعصف . واستقبلنا الأستاذ محرم فهمى المهندس المقيم فى مساقط أوين . وهو رجل هادئ الطبع ، رقيق الحس، دقيق التعبير ، يزدان رأسه بشعر فضى ، وتقيم معه زوجته وهى سيدة سويسرية ، وقد زارت مع زوجها جميع المراكز المصرية وكتب لها أن تطوف بريفنا وأن تزور البلاد الأوربية المختلفة . وعلمت أنها سيدة أحبت مصر وخاصة الريف وهى لهذا تنفر من المدينة وتؤثر على الحياة فيها حياة الأقاليم حيث توطد صلاتها وصداقتها بالريفيات تعلمهن وتهذبهن وتثقفهن ولها عدد من الصديقات القرويات اللائى يحرصن على زيارتها بين الفينة والفينة فى العاصمة . وترك الأستاذ محرم فهمى أولاده حيث يتلقون دراساتهم فى القاهرة ويكتفى بدعوتهم لقضاء جانب من فصل الصيف معه فى هذه البلاد أو ينتقل إلى الشواطئ المصرية حيث يعيش مع أولاده فترة من الزمن .

ويجيد الأستاذ محرم فهمى رطانة القبائل التى يعيش فيها فهو يتفاهم وخدمه بنفس لغتهم ، وأكد أنه لم يلق صعوبة فى

تعلم هذه اللغة وذلك للتزاوج الشديد بين ألفاظ كل من اللغتين العربية والرطانة الأخرى وأخذ يعد الكلمات التى حورت من العربية إلى رطانة سكان هذه البلاد .

وبعد أن شاهدنا الأعمال الجارية فى مساقط أوين عدنا فى المساء إلى الفندق بعد أن قطعنا بضعة مئات من الأميال بالسيارات وهى تنهب الطريق نهباً وتثير فى الوجوه عاصفة من الرمل الأحمر حتى غابت وجوهنا تحت طبقة من الغبار لا يستطيع صديق أن يتبين أحدنا إلا بعد أن يزيل هذه الطبقة .

وإذ كنا فى ضيافة الزمن تعلمنا أن مصر قد فكرت فى إنشاء مساقط أوين منذ ربع قرن ويزيد . وزارت بعثة مصرية مؤلفة من المهندس حسين سرى ومستر توتنهام من موظفى الأشغال المصرية ومستر إلن مهندس الرى بالخرطوم ودرست المشروع على الطبيعة . غير أن الظروف حالت دون التنفيذ إلى أن فكرت حكومة أوغندة فى إنشاء مشروع يرمى إلى زيادة المنسوب ثلاثين سنتيمتراً لتوليد قوة كهربائية رغبة فى تصنيع أوغندة . وهنا وجدت مصر الفرصة السانحة فاقترحت المساهمة فى المشروع بحيث يزيد المنسوب إلى متر وثلاثين سنتيمتراً فى بحيرة

فكتوريا وتساهم مصر فى نفقات البناء وفى تعويض السكان الذين تغمر مياه البحيرة أملاكهم الخاصة .

ولا بد لنا من ذكر هذه الحقيقة إذ أن لها صلة كبرى فى العلاقات الروحية بين الشعوب التى اشتركت فى الألم والمحن وعاشت على ضفاف النهر ، ويظهر ذلك عند الكلام عن حياة الكفاح السياسى فى أوغندة .

وإذا كانت إنجلترة قد وضعت قانوناً بوقف هجرة الهنود إلى هذه البلاد رغبة فى وضع حد لهذا الاحتلال الفنى فإنها قد قامت من جانبها باتخاذ إجراء تعتقد أنه من صالحها ومن صالح الأوغنديين . وهذا الإجراء هو إيفاد بعض الشبان الأوغنديين إلى إنجلترة ليتعلموا فى بعض معاهدها وذلك بإعداد برنامج خاص تعينهم مواده فيما بعد على مزاولة بعض الحرف الصغيرة والوظائف الصغرى ، وليكونوا دعاة لإنجلترة بين مواطنيهم. وهى تأمل أن تواجه بهذه السياسة النشاط الهندى فى تلك البلاد. واتخذت إنجلترة إجراء آخر يقضى بالحد من حرية التنقل الهندى فى تلك البلاد بحيث يقف نشاطهم التجارى أو يدخل فى دور الاحتضار توطئة لفتح المجال أمام « الشعب الأوغندى » أو بالأحرى أمام تجارة الرجل الأبيض .

الدم ثمن الأرض الطيبة

يقدس الأوغنديون أرضهم وهى عندهم فوق أى أعتبار ولا ثمن لهذه الأرض إلا الدم الغالى والأرواح الزكية . وأحس الوطنيون أن غاية الاحتلال غاية تملك لهذه الأرض والتضييق على السكان بوضع سياسة ترمى إلى استخلاص الأرض للرجل الأبيض وحده .

ومنذ أن وضع الاحتلال أقدامه على هذه الأرض وهو يلقى مقاومات ذات اعتبار فى تاريخ الاستقلال . ويسير الوطنيون فى ثوراتهم وفق الحوادث الداخلية وهم قوم عزل من السلاح فى حين أن خصمهم مزود بكافة الأسلحة الفتاكة ولا ينى عن استخدامها بشدة وقسوة وتنتهى دائماً بانتصار قوات الاحتلال وهو انتصار يزيد فى صلابة الشعب وفى اشتعال نار الحقد والبغض لكل غريب يريد به شراً . على أن الاحتلال لم ينتصر فى كل ثورة بل كثيراًما ترغم عزيمة الوطنيين قوات الاحتلال على الرضوخ إلى المشيئة الشعبية فتنام هذه القوات على الصمت والسكوت .

والثورات لا تنتهى وإنما لها غاية واحدة هى الاستقلال الحقيقى ومن أجل ذلك فإنهم يرقمون الثورات بالأرقام العددية ولا يطلقون عليها أسماء زعماء الحركة أو الواقعة أو المكان أو الزمان لأن الثورة عندهم امتداد لفهم الحياة السامية وامتداد لمشاعر الشعب وليست ملكاً لجيل دون سواه ولا لمجموعة دون غيرها . وعلى هذا فهم يقولون الثورة الأولى أو الرابعة أو الثامنة ! وكل ثورة منها تأخذ لون الدم والصراع العنيف بين الوطنيين وبين الإنجليز .

وكانت آخر ثورة نشبت فى أوغندة يوم أن أراد الإنجليز إنشاء جامعة وطنية إذ ليس فى هذه البلاد معاهد للعلم سوى ما تنشئه الإرساليات التبشيرية وهى إرساليات أدت للعلم والتعليم فى أوغندة خدمات لها أهميتها فى نشر النور بين أقوام يدينون بالوثنية . وتنتهى مهمة التعليم بنهاية التخرج فى معاهد الإرساليات المشار إليها . وفكر الإنجليز فى إنشاء جامعة يتخرج فيها الوطنيون حيث يعينون فى بعض الوظائف الصغرى فى الحكومة المحلية .

وقبل أن ينشئ الإنجليز هذه الجامعة استدعت الحكومة

المحلية بعض الخبراء لاختيار موقع صالح لهذا الغرض ، غير أن سياسة الحكومة اتجهت إلى إقامة هذه الجامعة على تل معروف باسم « مكررى » وهو تل يملكه فريق من الوطنيين وتقع خلفه أحياء الوطنيين. ويفصلها عن أحياء الأوربيين والجاليات الهندية بمدينة كامبلا . وكانت غاية بريطانيا هى حجب الأحياء الوطنية خلف أسوار الجامعة . ومن العجيب أن الجامعة تخرج مساعدين للأطباء البيطريين وعمالا « أسطوات » للمهندسين الإنجليز يمكن مقارنتهم بالذين يتخرجون فى الكتاتيب الصناعية أو المدارس الأولية الصناعية المعروفة بمصر .

ومن هنا بدأت الثورة التاسعة ؛ وغاية الوطنيين هى الإبقاء على أرضهم ورغبتهم فى البقاء على صلة ببلدهم « كامبالا » . وقد ضاع فى هذه الثورة ثلاثون من الأوغنديين وعشرات من رجال الجيش المحتل .

وخشيت إنجلترة من نشوب ثورة عاتية بمناسبة إنشاء مساقط المياه فى أوين ، إذ أن الماء سيغمر جانباً كبيراً من أرض زراعية واسعة يملكها الوطنيون عند أقدام بحيرة فكتوريا . غير أن أهل أوغندة لم يعارضوا المشروع ولم يقبلوا على الثورة العاشرة لا حباً فى

التعويضات التى يتقرر منحها ، وإنما لشىء آخر غير هذا ... علموا أن مصر ستستفيد من المشروع وأن الصلات بين أوغندة فى الجنوب وبين مصر فى الشمال صلات قوية متينة ، وأنهم يرون فى مصر العنوان على مقاومة الاستعمار ومكافحة الاحتلال. وليس من الوطنية أن تخذل مصر فى مشروع مساقط أوين وإنما من تقوية أسباب الكفاح أن يشعر الأوغنديون إخوانهم فى الكفاح والجهاد فى مصر بمدى الرباط القوى الذى ربط بين الألم والمصيبة .

وقفنا طويلا على تلال مكررى وقد تناثرت عليها أبنية الجامعة . ثم درنا بالسيارات مع التلال حتى وصلنا إلى القصر الملكى .

ولنترك الحديث عنه على أن نعود إليه فيما بعد . ثم نتحدث عن الحياة الثقافية والأدبية فى أوغندة .

عرفنا أن لغات هذه البلاد هى رطانات غير مكتوبة . وبذلك تنعدم أدبيات السكان ، وكل آدابهم أنواع من الغناء إما دينى وإما عاطفى يتصل بالمشاعر العامة التى يشترك فيها الوطنيون. هذه الأهازيج لها جمالها إذ أنها تصور الانفعالات والتأملات والأمانى والأحلام لهؤلاء الناس ، وهم يجدون لذة فى ترجيعها

وإنشادها فى المناسبات المختلفة . وظل الأمر كذلك إلى أن أزداد الوعى الوطنى فشرع المتقدمون فى الفكر والرأى فى إنشاء صحف يصدر بعضها باللغة الإنجليزية تعبر عن الرأى الوطنى المتقدم وهى تدعو إلى الاستقلال غير متأثرة بلون الثقافة التى حصل عليها فريق منهم عن طريق اللغة الإنجليزية . ورأى هؤلاء إنشاء ثلاث صحف تصدر بالرطانات الوطنية بعد اقتباس الأحرف اللاتينية وقد لقيت هذه الصحف انتشاراً كبيراً . وبدأت بذلك نهضة ازدهار فى أدبيات تلك البلاد ، إذ ظهر شعراء وقصاصون ورواة أخبار الأمجاد السالفة والمعقبون على التطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية . وهذه الصحف مثار قلق للسلطات المحلية .

ويقوم وراء هذه الصحف أعضاء حزب « باتاكا » أو « الحزب الوطنى » وهو حزب يتألف من العناصر الثلاثة التى تنتظمها أوغندة وهى العنصر الوثنى وهو أكبرها عدداً ثم العنصر المسيحى وهو التالى فى العدد ويرجع الفضل فى نشر الدعوة المسيحية إلى الإرساليات الأجنبية ثم العنصر الإسلامى ويرجع الفضل فى الدعوة إلى جماعات التجار الذين نزحوا إلى هذه البلاد

من شبه الجزيرة العربية أو اليمن أو الهنود المسلمين ثم إلى بضعة أفراد تسللوا إلى مصر وطلبوا العلم فى الأزهر . أما قوة انتشار الإسلام فتعود إلى جنود الجيش المصرى عند ما وصل إلى أوغندة وتمت زيجات بين الجنود و بين العائلات الأوغندية .

وعلى الرغم من هذه الاختلافات فى الملة فإن أعضاء الحزب يحرمون الدخول فى أى جدل دينى و إنما يرتفعون بالوطنية إلى المقام الأسمى . وهم حريصون على النجاح بقضيتهم الوطنية غير عابئين بما يلجأ إليها الإنجليز من بذر بذور الشقاق بين أبناء الوطن الواحد عن طريق الديانات .

ويحصر الأوغنديون النزاع بينهم وبين بريطانيا فى أضيق الحدود وهم لا يرمون رجالاتهم بالخيانة وإنما يصفونهم بأنهم ضحايا الظروف الخاصة .

ويحرك حزب « باتاكا » وهو يضم الشيوخ المجربين والشبان المتحمسين دولاب الحركة الوطنية فى حذر وحكمة ويحيط نفسه بسرية مطلقة ويجد عمال الحكومة فى ترصد خطى أعضائه رغبة فى الوصول إلى حقائق نهجه السياسى ، غير أنهم لا يصلون أبداً إلى الجانب الجدى من حركات هذا الحزب الذى عقد الخناصر

على أن يفدى كل شبر من أرض بلاده الطيبة بالدم والمهجة والروح .

على أن الأوغنديين لا يرتاحون إلى الرجل الأبيض ولا يؤمنون بأخلاقه وإنما يرون فيه صورة للنفاق والخداع . وقد كان موقفهم منا موقفاً عجيباً إذ أنهم يرون فى وجوه لوحتها شمس أفريقية ما يقنعهم بأننا لسنا من الرجال البيض . ثم يلقون نظرة فاحصة على وجهى ساندز وبامبروج فيعود إليهم إيمانهم بأننا عملاء للرجل الأبيض على أقل تقدير . ولولا أن السلطات المحلية رصدت حولنا طائفة من الجواسيس وهم من عمال الفندق وخدمه لتركنا فى نفس الأوغنديين أسوأ الذكريات .

كان هؤلاء العمال والخدم والموظفون يرمقوننا بنظرات الاحترام لأننا موضع رقابة السلطة المحلية ؛ وكانوا يتحدثون بهذا بين مواطنيهم ، وشاع بين الأوغنديين أن مصر قد أوفدت بعثة سرية سياسية قصدها الوقوف على الحالة العامة فى البلاد لرفع صوتها فى العالم . وكان الأهلون يجلون الغرباء فى هذه الفترة وينظرون إليهم بعين الاحترام والتقدير ، فقد يكون هذا الغريب عضواً فى البعثة .

فى قصر الملك

يقولون إن الاستعمار البريطانى داهية أنواع الاستعمار ، فهو يلتوى بالأمور ويعقدها حتى تصير قضية غامضة تحار العقول فى حلها . ويستطيع أى إنسان أن يضرب عشرات الأمثلة على هذا .

غير أن النظام السياسى فى أوغندة يعد المثال الصارخ على هذه المسألة . فيفهم العالم كله أن أوغندة بلد معروف الحدود ، وله مكانه على خريطة العالم . أما الواقع فغير ذلك تماماً . وقد سألت ضابط العلاقات الخارجية وهو إنجليزى عن النظام السياسى فى البلاد فابتسم وقال :

إن هذا النظام بلغ من التعقد والالتواء درجة كبيرة . وفى اعتقادى أن وزير الخارجية البريطانية نفسه ، ولا وزير المستعمرات البريطانية نفسه ، لا يستطيع أحدهما أن يجيبك على هذا السؤال ، إذ أن الذى وضع النظام بعض الإنجليز الذين عاشوا فى تلك البلاد وفهموا الغاية من الاحتلال البريطانى وواجهوها بهذا

النظام المعقد . وآية ذلك أنهم قسموا البلاد إلى ثلاثة أقسام ورفعوا فوق كل قسم منها ملكاً . وكل ملك منهم مستقل فى حدود مملكته الخاصة وهو يديرها بمعاونة برلمان وطنى . وله أن يتخذ ما يشاء من القرارات ولكن هذه القرارات لا تعتبر نافذة المفعول إلا إذا عرضت على الحاكم العام ونالت موافقته . وقل أن تجد هذه القرارات طريقها للنفاذ إلا إذا كانت قرارات محلية لا تتعارض ورغبات المملكتين الأخريين . أما الحاكم العام فإنه صاحب الشأن فى تكييف السياسة الخارجية للممالك الثلاث ، وكذلك شؤون الدفاع والنقد شىء أقرب إلى النظام الفديرالى .

وقد زرنا قصر أحد هؤلاء الملوك الثلاثة . وهو ملك المنطقة التى تعد أبعد المناطق الثلاث وعياً وتقدماً وحضارة . وتعرف مملكته باسم « بوغندة » ، ويطلق عليه « كاباكا » أى « صاحب الجلالة » . ويقع القصر خلف سور خارجى مرتفع ، وقبل أن يدخل الإنسان من الباب الكبير يقع نظره على غرفة ترتفع عن الأرض ثلاثة أمتار وقد غطيت بنوع من « الساج » المموج . ولهذه الغرفة قصة فى التاريخ الأوغندى سنعود إليها بعد قليل .

وما كدنا ندخل من الباب الكبير حتى وجدنا مساحة شاسعة

فرشت بالرمل الأحمر ، وإلى اليمين مبنى البرلمان ومقر الحرس الخاص ، ويقوم بعد ذلك سور آخر ، يقع خلفه القصر الملكى وقد أحاطت به الأشجار الباسقة وبساط من الزهر والورود .

وبدأ أعضاء البعثة يعدون آلات التصوير غير أنهم توقفوا إذ رأوا أحد الحراس وقد هرع إلينا فى غضب وانفعال . وقد ارتدى الحارس ثيابه العسكرية ووضع على رأسه قبعة جميلة ترتفع فى أعلاها ريشة طاووس زاهية يداعبها الريح . ورفعت بصرى وصوبته إلى كتفيه لاستقراء النجوم المميزة لرتبته العسكرية فإذا به يحمل رتبة القائمقام ولكنه كالجنود تماماً يسير حافى القدمين وهى عادة دارجة فى تلك البلاد . ولم يترك لنا فرصة للحديث بل أسرع يسألنا عن جنسيتنا وعن غايتنا من الزيارة وذلك بعد أن قدم نفسه إلينا بوصفه القائد العام للحرس البرلمانى . وما كاد يعلم أننا من مصر حتى شاعت ابتسامة حلوة على وجهه وبدأ يعانقنا ويشد على أيدينا واحداً بعد واحد . وأخذ يحدثنا عن القصر وقال إن التصوير فيه ممنوع لأن الكاباكا « جلالة الملك » يرغب فى ذلك ولكنه لا يعارض فى تحقيق رغبة لمصرى لأن هذه هى رغبة الملك نفسه ؛ ولو كان موجوداً لسره كثيراً أن يستقبل أبناء

النيل غير أنه متغيب فى لندن لزيارة خطيبته .

وخطيبة الملك أوغندية أو بتعبير أدق بوجندية تتلقى علومها فى جامعة لندن وهو ينتهز فرصة إجازتها الصيفية ليقضى إلى جانبها جانباً من الصيف ثم يعود إلى بلاده .

وقد ارتحنا إلى هذه المجاملة الصادقة ، وأكدنا له أننا احتراماً لرغبة الملك « الكاباكا » لا نلتقط أية صورة لا فى القصر ولا فى حرمه . ثم وقفنا إلى جانب الغرفة القائمة إلى يسار الداخل إلى القصر ؛ وحدثنا عن مهمة هذه الغرفة فى حياة البلاد الأوغندية فقال إنها مملوءة بنوع من الخشب الذى تنبته تربة البلاد وله نوع من القداسة عند سكانها ، ويظل هذا الخشب محفوظاً بالغرفة فإذا مات الكاباكا أو تنازل عن عرشه أو أسقطه الشعب ، أشعل رئيس الكهنة النار فى الخشب وفق مراسيم دينية وتقاليد عسكرية وتظل النيران مشتعلة إلى أن يرتقى أريكة الملك كاباكا جديد . ومعنى اشتعال النار أن البلاد تحترق لهفةً إلى ملك جديد وأن النار مشبوبة فى القلوب ، تتلظى فى الصدور إلى أن يطفئها ارتقاء الملك الجديد العرش .

وعدنا إلى الفندق ، وقد غطت الرمال الحمراء وجوهنا وسدت

خياشيمنا وأرهقت أديم ثيابنا ، وقصدنا من فورنا إلى غرفنا للاستحمام وإذأنا تحت الرشاش « الدش » اقتحم باب الغرفة شاب وطنى فى سن الخامسة والعشرين وشرع يحدثنى باللغة العربية فى أسلوب واضح وهو حريص على الفصحى ، وخشيت أن يكون أحد عملاء السلطة الحاكمة أو حكومة الاحتلال ، وزاد إيمانى هذا عند ما طلبت إليه أن ينصرف إلى الداخل حتى أفرغ من الاستحمام ولكنه أصر على أن ينهى إلى أموراً خطيرة خوفاً على الوقت من الضياع ، وزادت العقيدة عند ما بدأ يتحدث عن الرقابة المحكمة المضروبة من حولنا ؛ ولم أجد سبيلا إلى صرفه فشرعت بدورى أحدثه ، فعلمت منه أنه طالب بالجامعة الأزهرية وأنه ابن شيخ الإسلام فى أوغندة ؛ وبدأ كلانا يفصح عن مفاتيح السر التى زودنا بها فى القاهرة ووثقت من الشاب .

وكانت مهمته أن يهيء لنا فرصة الاجتماع بأعضاء حزب باتاكا أو الحزب الوطنى أو حزب الشيوخ المجربين ، وهو الحزب الذى أشرت إليه من قبل وينتظم العناصر الرئيسية فى البلاد وهى العناصر الوثنية والمسيحية والإسلامية وفق الترتيب العددى فى البلاد .
واتفقت وإياه على الخطة وطريقة الفرار من أعين الرقباء المرصودة

من جانب السلطة المحلية .

وكنا نلجأ إلى حيلة غريبة لعقد اجتماعاتنا الخاصة فى الليل وهى أن نجلس حول مائدة نعدها للعب الورق ثم ندرس المسألة فإذا فرغنا من البحث انصرفنا إلى النوم العميق .

والغريب دائماً مشوق إلى معرفة كل شىء عن أية أرض جديدة يحل بها . وعلى الرغم من فقرنا فقد سألنا عن أمانة الخدم فقيل لنا إن هذه البلاد لا تعرف السرقة وآخر سرقة وقعت هى سرقة ملابس من أحد الفنادق منذ عشر سنوات تقريباً . وأخلدنا إلى الراحة وأغلقنا عيوننا على سبات هادئ لذيذ ثم فوجئت بأصوات غير واضحة اختلطت بزئير عاصفة فى الأشجار الباسقة التى تحيط الفندق والمنطقة التى يقوم فيها وسقوط الأمطار العاتية واستيقظ أعضاء البعثة فإذا بنا نتبين لفظة واحدة « موسى ، موسى » . وضحك أحد الزملاء وقال إنهم يسألون عنك فقلت خيراً إن شاء الله .

ثم علمنا أن موسى هذا أحد خدم الفندق وقد حاول سرقة متاع أحد النزلاء فكشف زملاؤه الأمر ففر من الفندق وأخذوا يضيقون عليه الخناق ويبحثون عنه فى منطقة أقرب إلى الأدغال . منها إلى الأحراش . ولم نتابع بقية القصة .

الغابة المشتعلة

أخفيت سر مقابلة الشاب عن زملائى إلى أن يحين الوقت المناسب . وقد تقرر بينى وبينه أن تتم فرصة الاجتماع فى آخر ليلة نقضيها فى أوغندة حتى لا نلقى متاعب من الحاكمين الأجانب

ومما هو جدير بالذكر أن إرساليات التبشير قد فعلت كثيراً فى صدد تنوير العقول البعيدة عن مباهج النور ، ولكن أثرها محسوس وذلك لأن تعليم أبناء البلاد وتبصيرهم بأمور الدين يحتاجان إلى تعليم أهل البلاد جميعاً لغة دون بها الإنجيل وهو أمر فوق المستطاع ، ومن هنا يتعلم المبشرون الرطانات وينبثون فى القبائل وينقلون إليها رسالة المسيح بالرطانة الخاصة بكل قبيلة .

ومن الطريف كذلك أن المسلمين فى هذه البلاد لا ينطقون اللغة العربية ويعتمدون فى نشر الدعوة على ترجمة القرآن إلى اللغة الإنجليزية وإن حرصوا على أن يحتفظوا بالقرآن الكريم فى دورهم قصد التبرك . ومن مآثر على خان نجل أغا خان إمام الطائفة الإسماعيلية فى تلك البلاد إنشاؤه مسجداً بمدينة كامبالا على ربوة

عالية وفى مكان لطيف وبناه على نظام « تاج محل » وهو بناء على بساطته فى منتهى الروعة والجمال .

وإذ دخلنا حديقة المسجد رأينا لافته بالإنجليزية « خذ يمينك إلى مكتب الإمام » . وقد دونت البسملة باللغة الإنجليزية بخط مذهب فوق ارتفاع مدخل المسجد . وإمام المسجد له عدة وظائف منها أنه الإمام ، والمؤذن ، والمأذون ، والواعظ ، والخادم فى وقت واحد .

وقد ناقشناه فى شؤون الدين فإذا صلته به هى أنه يحمل نسخة من القرآن الكريم وكأن فيها مفاتيح الغيب .

وزرنا كذلك طائفة من الكنائس والكاتدرائيات وقد بنيت جميعها على طرز بسيطة رائعة ويؤمها الوطنيون وأعضاء الإرساليات ولا يؤمها أبناء الجاليات الأوربية وذلك رغبة منهم فى توقير معنى الارتفاع الطبقى بين الجنس الأبيض والجنس الملون .

وانتهت برامج اليوم الأخير ، وتناولنا عشاءنا ، وهمست فى آذان إخوانى بأننا سنقدم الليلة على مغامرة وهى اجتماعنا بحزب « باتاكا » . وطلبت إليهم أن يتناوموا حتى ينصرف ساندز وبامبردج ثم نفر من الباب الخلفى ، ونقطع حديقة الفندق إلى

الطريق العام حيث تنتظرهم سيارة لنقلهم إلى مكان الاجتماع .

ورأت اللجنة التنفيذية للحزب أن تعلن فى كامبالا أنها قررت عقد اجتماع عام فى وسط المدينة لمناقشة بعض المسائل السياسية وذهب إلى مقر الاجتماع رئيس الحزب وبعض أعضائه قصد التعمية وتركوا نفراً من البارزين للاجتماع بنا سرًّا فى مكان بعيد عن المدينة . . نجحت الخطة ؛ وقد رصدت الحكومة فرقة من رجال البوليس للوقوف على الحالة .

أما من جانبنا فقد نفذنا الخطة المرسومة وكان فى استقبالنا بالسيارة شيخ الإسلام ، وهو رجل رفيع القدر نحيل الجسم طويل القامة عليه مهابة . وابنه الطالب الأزهرى وهو شاب ملتهب الإحساس ثائر العواطف يتميز بالجرأة والإقدام وسرعة البديهة . وسائق وثنى يتكلم الإنجليزية وهو يعد من غلاة الوطنيين فى تلك البلاد .

وأعادت إلينا هذه المغامرة قصة الشاطر حسن يوم أن كنا نتلذذ بها أطفالا حيث تبهر عقولنا وصف رحلاته من جبل إلى جبل ومن بلد إلى بلد حتى يحل بالهدف . ومثلت المغامرة لنا صورة حية للأفلام السينمائية وهى تمثل الأدغال الموحشة التى يدور

الصراع فيها بين الرجل الأبيض والرجل الأسود .

انطلقت السيارة فى طرق ملتوية غير معبدة وتحت ظلال أشجار باسقة تنفذ أضواء القمر من بين تشابك أغصانها ومن بين أوراقها فتضفى على المغامرة لوناً من السحر والجمال . والسائق حذر من خطورة الطريق وخطر الجواسيس الذين قد ترصدهم السلطة المحلية لتعقب أعضاء البعثة إذ كانوا يخشون علينا أكثر مما يخشون على أنفسهم ؛ وكانوا ينظرون إلينا نظرتهم إلى وديعة غالية بين أيديهم ثم يرون أننا أفضل للقضية العامة وهى قضية استقلال أفريقية منهم وأن تحرير مياه النيل من أدران الاستعمار رهن بالأقلام الحرة الجريئة وقد جرد الله أهل أوغندة من ميزة القلم

نعم ! ! إنهم على وعى كبير ، وهم — كما قدمت — يعيشون على الأمل وعلى قوة الكفاح وعلى الحيوية المتدفقة فى الشرايين . وإنهم أنشأوا بضع صحف وطنية باللغة الإنجليزية لتعبر عن أفكارهم الحرة . وترفع صوتهم فى العالم الخارجى غير أنهم يلقون صعوبات تذكر فى سبيل نشر هذه الصحف فى المحافل الدولية للحصار المضروب حولهم . وقل أن يرفع صوتهم مراسلو الصحف الأجنبية الذين يتلقون معلوماتهم عن الحكام ورجال

السلطة المحلية . وأنشأوا كذلك ثلاث صحف تصدر بالرطانات المحلية الثلاث مطبوعة بالأحرف اللاتينية ؛ ولكن الجهود المبذولة لا تكفى وحدها لرفع صوتهم فى العالم الخارجى وهو أمر ثقيل على أنفس المكافحين .

ودارت السيارة بنا ساعة ونصف ساعة ثم انحرفت إلى غابة دكناء موحشة ووقفت عن بعد قريب ، وترجلنا فإذا بعدد من الرجال فى استقبالنا وهم يقبلون علينا مرحبين ، وبدأ وكيل الحزب يقدم إلينا زملاءه واحداً واحداً وقد تجاوز عددهم الخمسين ، وقدمت إليه زملائى بدورى فكانوا يتعانقون والدموع تفيض من المآقى .

ودخلنا داراً قد سطعت فيها أنوار مصابيح ذابلة ، وبعد أن قدمت إلينا المرطبات والقهوة ، وجلسنا نتحدث قليلا فى رؤوس موضوعات عامة استأذن وكيل الحزب فى إلقاء خطاب باللغة الإنجليزية وقد ضمنه تاريخ الاحتلالين الفنى وهو احتلال التجارة وموارد الرزق من جانب الهنود والاحتلال العسكرى من جانب إنجلترة . ثم سلمنا نص الخطاب وقال إنه وديعة فى أيديكم وعليكم أن تكونوا دعاة قضيتنا لدى وزارة الخارجية

المصرية ولدى المحافل الدولية ؛ وذلك لأن وجودكم فى بلادنا يعد أول نصر لهذه القضية إذ أننا لم نتمكن لا فى الماضى القريب ولا الماضى البعيد من الاتصال برجال الفكر والقلم .

وأعقب الخطاب مناقشات طويلة حول الموقف فى أوغندة وصلته بالقضية الأفريقية العامة وهى القارة البكر العذراء التى يحرص البريطانيون على أن يجعلوها الإمبراطورية السوداء لتحل محل الإمبراطورية البيضاء التى كانت لهم فى أمريكا والإمبراطورية الصفراء يوم أن كانت أقدامهم أثبت من الصخر فى آسيا . . زالت الإمبراطوريتان وهم يسعون إلى إيجاد الإمبراطورية السوداء فى أفريقية .

ومضى فى ختام خطابه يؤكد لنا : أن هذه الغابة المشتعلة التى تنتظم وفداً من شمال القارة وجموعاً من أواسطها هى منارة عالية للدفاع المشترك عن الحرية الكريمة التى يقدسها البشر فى كل مكان . وإن أجراس النصر ستدق فى كل مكان لتؤذن فى الناس بأن أفريقية لن تسكت على ضيم ولن تنام على مذلة .

ونسيت أن أقول إن وكيل الحزب مسيحى تعلم على أيدى الإرساليات الأجنبية حيث عرف قدر الحرية وقدر الإنسانية وهو

تاجر أوغندى له مقام ملحوظ بين مواطنيه . ورئيس الحزب وثنى وله وكيلان أحدهما مسيحى والثانى مسلم . ويعمل أعضاؤه فى حدود الدعوة الوطنية غير متأثرين بألوانهم الدينية ولا بميولهم العنصرية . ويعد حزبهم هذا أقدم الأحزاب فى داخلية القارة وهو الذى أشعل النار بين القبائل وأدخل الثقة إلى النفوس حتى عمت الدعوة وشملت المناطق التى يسيطر عليها الإنجليز .

وقدنقل الماوماو حركتهم عن مبادئ هذا الحزب ، وليست لفظة « ماو ماو » دلالة على معنى سياسى أو معنى قبيلة أو جماعة وإنما معناها برطانة أهل كينيا : عليك أن تعمل عملا سريعاً إيجابيا . وهم يرددونها فيما بينهم كما يفعل المتصوفة وهم ينشدون فى حلقات الأذكار أورادهم ويتغنون بأسماء الله الحسنى فى نغم متسق .

الفردوس المفقود

مضت الأيام ولم تبق من خطاب وكيل حزب « باتاكا » سوى ذكريات لا تموت فى الأذهان . وقد استهل خطابه بقوله : منذ خمسين عاماً كانت هذه الأرض لنا ، وقد دخلها الرجل الأبيض وهو لا يملك إلا الإنجيل فى يديه ، وقد أراد أن يدخل النور إلى صدورنا عن طريق كتابه ، وبعد خمسين عاماً سلمنا كتابه وأخذ أرضنا . وبعد نصف قرن وقفنا مكبلين بطائفة من القوانين والتشريعات والتعاليم فلا نجد حرية فى هذه الأرض . ومن حقنا أن نسأل الرجل الأبيض : ألم يحن الوقت لأن تتركنا أحراراً فى بلادنا وأن تجعلنا أحراراً فى تقديس أرضنا وتقديس مشاعرنا .

ولقد أوجدوا من الوثنية قضية تعاب علينا وعلمونا أن الله واحد وأن الله محبة . ولكنهم لم يتأثروا بتعاليم عيسى بن مريم وإنما خدرتهم تعاليم لندن حيث اقتضت أن يكونوا هم السادة ونحن العبيد نرسف فى أغلال خلقت منهم الملائكة وجعلت منا

الشياطين . وهم يصلون إلى الثمر الجنى على أشلاء جثثنا وأحاسيسنا ، ويرفلون فى النعيم ونحن نعيش فى مسغبة وعذاب مقيم .

لقد هيأوا لكم برنامجاً جميلاً أتاح لكم رؤية هذا الفردوس فوقفتم على سر الجمال الذى أودعه الله هذه البلاد ؛ وكأنه جلت قدرته وعزت أسماؤه قد نفث فى بلادنا من جمال صفاته حتى غدت فردوساً وجنة ؛ ولكنكم لم تروا الآلام ولا الدموع ولا المرض ولا الجهل .

إن على قيد خطوات منا مرضى تأكل أجسادهم الأمراض الخبيثة وهم يحملون هذه الأجساد على أقدام معتلة ضعيفة ليلقوا حتفهم . ولم يكن لنا علم بهذه الأمراض من قبل ولكنهم أطلقوا علينا جماعة من ذوى الضمائر المرذولة فلمسوا نساءاً فشاع بذلك المرض وانتشرت العدوى بين الطبقات المسكينة رغبة منهم فى أن يقضوا على الجنس الأفريقى ليخلو الجو للرجل الأبيض .

وأوضح كذلك الحركات الوطنية وما تصادفها من عقبات وما يفعله رجال الاحتلال ابتغاء كتم الأنفاس وخنق الحريات . ثم عدد القوانين التى فرقت بين سكان البلاد وهم أصحاب الحق

المشروع وبين المحتلين وهم الذين اغتصبوا الأرض وصاروا السادة المالكين .

وقال إنهم يرغبون فى تصنيع بلادنا وهم من أجل ذلك يلحون فى إقامة مساقط المياه الجديدة وبذلك تدق أوتار الاحتلال بإنشاء الإمبراطورية البريطانية السوداء فى القارة البكر العذراء . غير أننا لن نيأس بل سنمضى قدماً فى ميدان الجهاد وحدنا إلى أن يكتب لنا الفوز لأننا نؤمن بعدالة قضيتنا . وفى نفس الوقت نتطلع إلى مصر لأنها رائد الشعوب إلى الاستقلال وإلى الحريات فهى الأم الرؤوم التى عرفتها البشرية على مدارج التاريخ مكافحة فى سبيل الحياة الكريمة .

وقد اختارنى إخوانى للرد على الخطيب ، وقام أحدهم بنقل الخطاب من اللغة الإنجليزية إلى الرطانة المحلية وقد استغرق هذا وقتاً غير قصير إذ كان يترجم مقطعاً مقطعاً وكانت جوانب المكان تضج بالتصفيق كلما لمسنا العلاقات الروحية والصلات القلبية بين أبناء القارة جميعاً الذين يرزحون تحت نير الاستعمار البريطانى .

ولا موجب للإطالة فى هذا الأمر فقد رأينا تركه لذمة

التاريخ غير المدون وهو تاريخ الصراع بين أمم غلبت على أمرها فى عصور متقدمة وأمم غالبة تلقى مصرعها السياسى فى عصور مضارعة . ودارت مناقشات سياسية حول ما يجب اتخاذه من حيث توحيد الصفوف بين المغلوبين على أمرهم فى هذه القارة ، واشترك فى الموضوعات أكثر الحاضرين .

على أن الذى يقال إن نظرتهم إلى مجموعة الآلام التى يرزح تحتها أهل الوطن فى مصر وفى السودان بجزئيه وفى أوغندة وكينيا وغيرها إنما هى صقل للنفوس الزكية العطشى إلى الحرية ؛ وإن الأتون المستعر الذى تنصهر فيه نفوس الأفريقيين سيحرق بناره الاستعمار ويلقى به إلى خارج حدود القارة . وقررنا أن يكون الشعار هو أن أفريقية للأفريقيين وعلى الغرباء الأجانب أن يخرجوا منها .

واختليت ووكيل الحزب الأول وهو مسيحى ووكيله الثانى وهو شيخ الإسلام الأوغندى حيث بسطت لهما وجهة النظر السياسية التى تؤمن بها وزارة الخارجية فى القاهرة . ووقفتهما كذلك على الأوضاع السياسية فى محافل مصر الوطنية وهى المحافل التى لا تتأثر بسيطرة خارجية أو تخشى سلطان القصر وإنما تنتظم

عناصر الشباب المصرى الذى يرى ويتألم ويعمل للخلاص من الشدة والضيق .

وكان أمل هؤلاء الناس كبيراً فى وزارة الخارجية فى ذلك الحين إذ كانوا يأملون أن تتبنى هذه الوزارة القضية الأوغندية وأن تثيرها فى هيئة الأمم غير أن شيئاً من ذلك لم يحدث على الرغم من وقف الوزارة على كل ما انتهيت إليه من درس وبحث وعلاقات واتصالات .

كانوا يأملون أن توفد صحافة مصر بعثة إلى الخارج للتحدث باسم هؤلاء التعساء وترفع صوتهم إلى العالم كله غير أن الصحافة المصرية وقعت تحت سلطة الرقيب من ناحية وهى تعمل فى الدائرة التجارية من ناحية أخرى . تمنوا أن تعينهم مصر على إنشاء مدارس وطنية وهى تتطلب ميزانية متواضعة لا تعجز مصر ولا تثقل على كاهلها المالى وبذلك تتاح الفرصة لتعليم أبناء هؤلاء التعساء حتى يكونوا أسعد حظاً من آبائهم وأجدادهم الأسبقين . وتمنى المسلمون أن تنشىء مصر فى أوغندة معهداً دينياً يفتح الغامض المجهول ، ولكن شيئاً واحداً مما تمنوه لم يحدث ، واكتفى المسؤولون فى مصر — فى ذلك الحين — بترديد العبارات الحماسية

وتهنئة البعثة على ما نالته من فوز ونجاح .

وانتهينا من اجتماعنا قبيل الفجر حيث كانت ساعة الوداع على نحو من رقيق المشاعر والغبطة والبهجة . . كانت الدموع لغة مشتركة ونحن نعانق هؤلاء الأبطال بين طيات الأشجار وفى كبد الغابة المشتعلة .

وكان جميلا ونحن ننظر إلى هؤلاء الوطنيين وهم يتسللون بين الغابة فى خفة ورشاقة ليعود كل منهم أدراجه بعيداً عن الأعين الراصدة . وحملتنا السيارة وانطلقت بنا إلى الفندق من نفس الطريق ثم تسللنا إلى الداخل فى حرص وحذر وكانوا قد اتفقوا مع الخدم على أن يسهروا لاستقبالنا بعد الفجر بقليل . دخلنا غرفنا وجمعنا حوائجنا ورتبناها فى حقائبها وحاولنا أن نقدم للخدم شيئاً من النقود غير أنهم رفضوا ذلك لأننا رسل الحرية التى يتشوق إليها كل وطنى أوغندى .

ووصل إلى الفندق بعد قليل ضابط الاتصالات الخارجية وكانت دهشته عظيمة إذ علم أننا على استعداد ، وبلغت غبطته حدًّا كبيراً إذ علم أننا أسلمنا أنفسنا إلى نوم هادئ عميق . ومبالغة فى إخفاء الأمر عليه قلنا له إننا نود أن نرفع شكرنا إلى

الحكومة الأوغندية على كريم حفاوتها بنا فرحب الرجل بالفكرة وذهبنا إلى دار الاتصالات فقيدنا أسماءنا فى سجل خاص . ونحن نبتسم فى أنفسنا فإن مستر ساندز كان أول سجان يلقى الشكر من مسجونيه .

وأبدى الضابط رغبته فى أن يصحب أعضاء البعثة إلى بلدة « ماسندى » على الحدود الأوغندية السودانية وذلك إشعاراً منه بتقدير الحكومة أعضاء البعثة وتكريماً لسلوك الأعضاء الذين لم يقحموا السياسة فى العلاقات المائية بين منابع النيل ومصباته . وأخذ الرجل يطالبنا بأن نكون على صلة به فنوافيه بما نكتب ونوافيه بما نصور فى صحف مصر المحلية .

منطقة الرعب

وتركنا خلفنا العاصمتين الرسمية « عنيتبي » والتجارية « كامبالا » وغيرهما من المدن ثم مضينا فى طريقنا إلى « ماسندى » وهى مدينة تقوم على قرب من حدود السودان الجنوبى الجنوبية الشرقية وقطعنا طريقاً زراعياً طويلاً فى أكثر من ست ساعات بسرعة تفوق العقل . وكان من المتفق عليه أن نسير فى رتل متصل من السيارات ومعنا مستر ساندز لتخلف بامبردج مع زوجته بعض الوقت .

وقد ضقت ذرعاً بطول الطريق فطلبت إلى السائق أن يسرع دون انتظار لإخواننا الذين بهرتهم مناظر الطبيعة فراحوا يلتقطون الصور الفوتوغرافية ويسجلون الأوابد الذهنية . وكان السائق نفسه تواقاً للوصول إلى ماسندى حيث يقضى فترة أطول مع أسرته هناك . وسبقنا الركب بساعة ونصف ساعة ومعى زميلان ثم قصدنا توًّا إلى الفندق وسألنا عن الغرف المعدة لنا فوجدنا أنفسنا أمام مشكلة جديدة .

هذه المشكلة هى اعتذار إدارة الفندق بعدم وجود أماكن شاغرة ولا غرف محجوزة لهذه البعثة . وقد ناقشنا صاحب الفندق طويلا وهو هندى ، حول هذه المسألة فأجاب بأن مفتش الرى المصرى فى جنوب السودان قد سبق له أن حجز بعض الغرف ثم عاد فألغى الحجز ببرقية . وطالبته بالبرقية فظل يبحث عنها ثم اعتذر بأنها فقدت .

استأذناه فى أن يسمح لنا بأن نغسل وجوهنا ونزيل عنها التراب ونستريح من وعثاء السفر فقبل الرجل على مضض بل إنه كان يلاحقنا بنظرات مختلسة . وقد أنشىء الفندق على نظام الطابق الواحد وعلى الطراز الإنجليزى الحديث ؛ وفى وسطه صالون متسع الرحاب ، وإلى يمين الداخل إليه « بار » ثم فى أحد الأركان مكتب للإدارة وتقوم الحجرات على نظام مربع ، وبعضها خاص بواحد وأكثرها خاص باثنين . و « ماسندى » بلد غير مطروق ولكن هذا الفندق يستقبل دائماً رجال الحكومة وبعض كبار التجار ويؤمه طوال السنة تقريباً جماعات الممثلين والممثلات من أمريكا وأوربا وذلك لالتقاط المناظر الطبيعية ، إذ أن المنطقة التى تحف به من أغنى مناطق العالم بالسحر والجمال .

وفى اللحظة التى دخلنا فيها الفندق وهدأنا به زمناً لم يقع نظرنا فيه على راكب أو نازل .

وبعد قليل أقبل مستر ساندز وقد امتقع وجهه واحتنق وعاب علينا تركنا إياه وبعض الزملاء وأخذ يحقق فى لهفة فيما إذا كنا قد اتصلنا بأحد من السكان الوطنيين حتى إذا اطمأن خاطره عاد هادئ الطبع وعادت إلى وجهه ابتسامته . وقد شغلتنا مسألة تدبير الغرف إذ أننا لا بد وأن نقضى فى هذا الفندق ليلتنا ولكن ضابط العلاقات الخارجية طيب خاطرنا وقال : فلننتظر إلى أن يصل بامبردج .

وبعد حين أقبل بامبردج وزوجه وهى سيدة لطيفة وكان أبوها أحد رجال الإرساليات التبشيرية بأسيوط وتزوجها بامبردج عند ما كان موظفاً بوزارة الأشغال ويعمل فى أسيوط . وكانت متحفظة فى بادىء الأمر حتى وثقت بنا وأنست إلينا فاندمجت فى الوسط وأطلقنا عليها سيدة الرحلة وجعلت تصدر إلينا الأوامر والتعليمات ونحن ننفذها فى دقة مبتهجين .

كانت المنطقة التى تقرر أن نقضى فيها ليلتنا منطقة الذبابة التى تصيب بنى آدم بالنوم . وقد قاومها رجال السلطة الإنجليزية

بعد جهود متصلة استغرقت زمناً طويلا . إذ قسمت المنطقة إلى مساحات صغيرة ثم أخلت المساحة الشمالية من السكان وقاومت الذبابة بالرش والتعفير حتى إذا خلت من الذبابة تماماً انتقلت إلى المساحة المجاورة لها . . وهكذا . فلما تأكدت من القضاء عليها تماماً دعت السكان إلى العودة إلى وطنهم الأصلى .

وفى الناحية الجنوبية من هذه المنطقة تقوم « منطقة الرعب » وقد وضعت الحكومة فى أماكن متعددة بها لافتات باللغة الإنجليزية تدل على الخطر الكامن داخل هذه المنطقة . وهى منطقة خاصة بجماعة اللوردات وكبار الهواة من الصيادين الأثرياء فى العالم ويرتادونها بترخيص من الحكومة حيث تعد لهم أسطولا راكباً من الجيش يكون تحت إمرتهم إذا ما هاجمهم الحيوان المفترس .

وهى مسرح لشركات السينما الأمريكية والأوروبية حيث تتاح لهم الفرص لالتقاط أروع المناظر الطبيعية التى نشاهدها فى دور السينما .

والمنطقة غنية بالوحوش الكاسرة والحيوان المفترس ، ورغبة فى المحافظة على النسل وضعت الحكومة نظاماً للصيد بحيث لا

يقضى على أصل الحيوان أو الوحش .

غير أن نظرتنا إلى هذا الجمال قد تبدلت كثيراً ؛ إذ أننا رأينا أن كل نبضة منه تدل على هزيمة مواطن أصلى ؛ وأن هذا السحر الرائع هو قنطرة يعبر عنها الرجل الأسود إلى النهاية المحتومة . . الموت المؤكد والفناء السريع .

ومن الطرائف الجميلة أن ترى أطفالا لم يتجاوزوا سن الخامسة وقد ساروا فى هذه المنطقة حفاة عراة وقد ثبت كل منهم على كتفه حربة وسار بقدم ثابتة دون خوف أو وجل من وحش أو حيوان . ويلقن الأباء والأمهات أولادهم طرائق إتقاء هذه الوحوش الكاسرة عن طريق حركة سريعة يؤديها الطفل أو الرجل أو المرأة فينصرف الحيوان إلى حال سبيله مهما بلغت به ثورة الجنون والرغبة فى البطش أو العدوان أو الانتقام .

وفى كبد « منطقة الرعب » مدينة تقوم على قمتى جبلين عاليين يربط بينهما جسر خشبى ، ويقف الناس فوق هذا الجسر وفى أيديهم المناظير المكبرة حيث يرون أنواع الحيوان والوحوش الكاسرة وهى تتصارع فى هوة الوادى السحيقة وهو صراع لا رحمة فيه ولا عقل .

وإذا ما جن الليل بدء زئير الحيوان وعواؤه وكأنه يهدر كما يهدر البحر الصاخب من غير انقطاع ، فيضفى على هذه المنطقة لوناً جديداً من الهيبة والروعة ويبعث فى النفس الوحشة والجزع .

وقد رأينا على الطريق العام ضحايا فيل هائج ، إذ هاجم الفيل جماعة من البيض فى سيارة كبيرة « استيشن وجن » فألقى عليهم شجرة باسقة عطلت السيارة وانقض عليهم بخرطومه وبرجليه يدوس فى السيارة حتى جعل من الشجرة ومن حديد السيارة وصفيحها وأجساد الضحايا قطعة من العجين تعوم فى بركة من الدم الأحمر القانى .

وأقمنا فى المساء حفلة عشاء تكريماً لضابط الاتصال مزجنا فيها الجد بالهزل ، والصراحة بالفكاهة واشترك معنا فيها بعض النزلاء من الأجانب . ووزعنا كل اثنين فى غرفة .

وقضينا شطراً من الليل فى الحديث عن الجن والعفريت . ونقلنا لفريق من الأجانب صورة عن ريف مصر فيما يتصل بوجود أرواح أخرى غير معروفة لنا وهى أرواح منها الخير ومنها الشرير كأبناء بنى آدم سواء منهم الأخيار ومنهم الأشرار .

وما كدت أضع جسدى فى السرير حتى أخذتنى سنة من

النوم ، ولكننى استيقظت على صوت زميل لى وهو ينام فى سرير مقابل ويناديى باسمى مؤكداً أن فى الغرفة عفريتاً . سألته عن هذا العفريت فطلب منى أن أنظر إلى سقف الغرفة فوجدت قطعة من النور الفضى تضرب فى هذا الفضاء فجعلت أبسمل وأحوقل وأؤكد له أن هذه روح أحد المكافحين الذين استشهدوا فى سبيل الدفاع عن بلادهم ، وأن الروح تحيينا من عليائها وتهتف بنا : تذكروا إخوانكم فى الذل والاستعمار .

وكان قلب الزميل خفيفاً ، وقد شعرت أنه يعانى فكرة الخوف السوداء ، فقمت من السرير وأدرت برغوم الكهرباء فاختفت الروح ، وهدأ الزميل ثم عدت فأطفأت النور وما كدت أخلد للنوم حتى ارتاع الزميل وقال : لقد عادت الروح ثم جمع شجاعته وانتقل إلى سريرى وجلس على حافنه وقال : لن أستطيع النوم فأرجوك أن أظل إلى جانبك حتى الصباح .

وابتسمت وقلت له ألم تقرأ فى الأدب العربى شيئاً عن « البراع » ، إنه هذا اللون الفضى وهو موجود بكثرة فى ريف مصر ، ولكن ما ذنبى وأنت فلاح من « بكين » .

المجد الغارب

انتهت أيامنا فى أوغندة ؛ وكان لا بد أن تنتهى ؛ وحملنا متاعنا فى رتل من السيارات ، وقد أعدت قرينة بامبردج ألوان الطعام والشراب فى حدود معينة وهى تؤكد لنا أن الطريق طويل وهى تخشى أن تفتح شهية الأعضاء فيقبل كل منهم على الطعام فى غير وعى ، وعلى هذا فقد قررت أن يكون الطعام وجرعات الماء بالبطاقة .

ومضت السيارات فى سرعة وجنون تنهب الطريق ، وتأكل الزمن ، ونحن بين معالم الطبيعة الرائعة ولم نعرف أننا دخلنا حدود السودان الجنوبى إلا عن طريق لافتة حملت سهمين كتب على أحدهما بالإنجليزية « أوغندة » وعلى الثانى ؛ بالإنجليزية أيضاً « السودان » . ووقفنا إلى جانب حامل اللافتة وكأنه واحد من آباء الهول يطوى صدره على الأسرار ولا ينشر أمره بين الناس والتقطنا صوراً تذكارية .

وعدنا إلى أماكننا وانطلقت السيارات تسبق الريح ، وفى

الحق لم نحس للريح أثراً ، بل كانت شمس ذلك اليوم محرقة ، ثم توقفت سيارة الرائد وهتفت مسز بامبردج : هذا هو خط الاستواء .

وهو ذلك الخط الوهمي الذى بدأنا به دروس الجغرافية ونحن صغار فقد تعلمنا الوهم قبل الحقيقة والمركب قبل البسيط والمعقد قبل الميسر وبذلك كانت العداوة قائمة بين التلاميذ وبين برامج التعليم .

وبعد الظهر بساعة ونصف ساعة انحرفنا عن الطريق العام وأخذنا ندور حول جبل أشم والسيارات ترقى صخوره حتى وصلنا إلى استراحة الرى المصرى ، فكان الهواء طلقاً والحياة لطيفة والمنظر رائعاً . وقامت سيدة الرحلة بتوزيع وجبة الغذاء علينا فى حدود البطاقة التى حددتها ونحن نحاول ، مازحين ، كسر القانون والاعتداء على مخزن التموين وهى تدرأ عن قلعة الطعام صفوف الثوار فى ابتسامة رائعة .

وبدأ أبو الهول الصامت ، بامبردج ، يحدثنى لأول مرة حديثاً جديداً وعن أشياء جديدة ، فقد أثار طائفة من المسائل فى فقه اللغة العربية وبدأها بالكلام عن « رجف »

و « أرجف » ويعد واحداً من المستشرقين المجهولين وقد أرجع استشراقه إلى أنه خدم مصر منذ عام ١٩٠٧ حيث قام بعملية مسح الأرض المصرية ثم تنقله بين الريف حيث قطعه فتراً فتراً لا شبراً شبراً ، وأنه كان يصطدم بتباين عجيب بين لهجات عامية تكاد تكون مقطوعة الصلة بين مديرية وأخرى ولم يجد بدًّا سوى أن يتعلم الفصحى ومنها دخل إلى الاستشراق وأضاف إلى ما تقدم أن حياة الوحدة فى السودان بعد قانون التعويضات المعروف وهو قانون أخرجت به أول حكومة برلمانية فى مصر سنة ١٩٢٤ الموظفين البريطانيين باستثناء بعضهم الذين انطبقت عليهم التزامات التحفظات الأربعة . وبموجب هذا القانون خدم بامبردج فى السودان زهاء ربع قرن فاستغل أوقات فراغه فى درس اللغة العربية وآدابها وعلومها المتفرعة وتوغل فى الدين الإسلامى وفى الحضارة الإسلامية . ولكنه حريص على كتمان الأمر لأنه لا يريد الإعلان عن نفسه على أية صورة .

أما الذى أثار فعلى « رجف » و « أرجف » فهو جبل يقوم على بعد قريب منا وإن كان الجبل يقوم بين قبائل الجولو فإنهم يطلقون عليه « جبل الرجاف » ؛ وهو جبل كثير الاهتزاز ،

ولعل باطن الأرض التى يقوم عليها باطن يغلى فيهتز الجبل . أما تسميته فعربية صحيحة وقد يكون إطلاقها راجعاً إلى أحد التجار العرب الذين ارتادوا هذه المجاهل أو لأحد رجال الجيش المصرى الذين وصلوا إلى هذه البلاد .

واستأنفنا الرحلة فى طريقنا إلى « جوبا » وهى عاصمة المديرية الاستوائية . وكان علينا أن نعبر النيل بمعدية بخارية وهى ملك لمصلحة السكة الحديد السودانية ، ووصلنا إلى مرساة المعدية بعد العصر بقليل ، فراعنا أن نلقى « قطيعاً » من البشر ، رجالا ونساء ، حفاة عراة كما ولدتهم أمهاتهم فى انتظار المعدية وهم يتراطنون ويقبلون علينا بابتسامة حلوة ونحن نقدم لهم بعض الهدايا الرخيصة التى فرحوا بها فرحاً كبيراً .

وإذ انتهينا إلى البر الغربى وجدنا أطلالا بالية مندثرة ، الحجارة المصرية الحمراء التى تبنى منها المنازل فى الريف المصرى وقد كانت هذه الحجارة هى البقايا المندثرة لمدينة التوفيقية العاصمة السابقة للمديرية الاستوائية منذ ربع قرن إلى أن جعل الإنجليز السودان الجنوبى منطقة مغلقة فى وجوه الناس إلا بترخيص يمنح . . وأراد الإنجليز أن يزيلوا معالم هذه العاصمة

تماماً حتى تزول عن الأفكار ذكريات الصلات بين المصريين وبين أهل الجنوب ، فكان ذلك عن طريق إزالة التوفيقية وإقامة « جوبا » قريباً منها . إذ تبعد جوبا عن العاصمة السابقة بأكثر من عشرة كيلومترات بعيدة عن ميناء النهر وتقوم فى الداخل .

وفى طريقنا إلى فندق جوبا رأينا العلم المصرى يرفرف إلى جانب العلم البريطانى فى الحديقة القائمة أمام مخفر البوليس وهو كل ما تملكه مصر فى السودان الجنوبى . على أن ارتفاع هذه الرقعة الخضراء فى هذه التربة الخضراء العزيزة أوحى إلينا الشعور الكريم بأننا فى أرض الوطن وبين الأهل والخلان . وهو شعور يجل عن الوصف وذلك لأنه يرتبط بقوة كامنة فى النفس ، قوة الرباط بين المعنى وبين الحقيقة الراهنة .

ولفت النظر عند مدخل المدينة سرب من السيدات وقد ارتدين الملابس البيضاء تغطى أجسادهن تماماً ثم غطاء الرأس الأسود يحجب وجوههن تماماً وقد علمنا أنهن « الملكية » . والملكية هم أحفاد المصريين من رجال الجيش المصرى وموظفى الحكومة السودانية الذين عاشوا فى السودان بعد أن أبعدت مصر عن إدارته . ويسكن الملكية فى حلة خاصة بهم ، الحلة معناها

القرية وهى مقامة على هيئة أكواخ مبنية من نبات البردى ؛ وجميع الحلل فى السودان الجنوبى مقامة على هذا النحو .

واحتفظ الملكية بالطابع المصرى الأصيل فى طرائق العيش والدين والعادات وهم يعملون فى الحدود التى رسمتها السلطة الحاكمة للجنوب وهى حدود ثقيلة على النفس تضيق بها الأرواح ، ولكن لا حيلة لهم فى تبديل أمرهم أو تغيير حالهم وهم يمثلون الحضارة البشرية بين ظلام القبائل الدامس ؛ ولم يتأثروا بالحياة الفطرية ولم يؤثروا فى هذه الحياة بل ظلوا الشوامخ فى العالم المجهول .

وعند ما أرخى الليل أسداله هبت عاصفة من المطر ، ووصل إلى الفندق تحت وابله فريق من أبناء السودان الشمالى فأنهوا إلينا أن إخواننا السودانيين ينتظروننا فى « النادى الشمالى» ، فخرجنا معهم إلى أن وصلنا إلى نادى أهل السودان الشمالى وقد ضاق على سعته بالمئات من الموظفين والعمال ووقف فى خارج النادى مئات آخرون تحية منهم لأول بعثة مصرية صحفية تدخل هذه البلاد . وشاؤوا أن يكون الاستقبال مصافحة وعناقاً . فكانت مظاهرة رائعة أحدثت فى الحاضرين حركة قوية وانسالت الأرواح فى مجالات الحب والأخوة وعلاقات التاريخ الراسخة .

واختلط أهل الجنوب العراة بأهل الشمال اللابسين خارج النادى دون أن يؤثر المطر الشديد فيهم وبعد أن قدموا لنا المرطبات وقف رئيس النادى وألقى كلمة تحية موجزة طالب فيها الأعضاء أن يتحدثوا عن مشاهدهم وهم فى طريقهم إلى جنوب السودان وأن يوجزوا فى القول ؛ وبذلك أقام من نفسه رقيباً على حدود الحديث وبين فى كلمته ما يجب أن يقال وما لا يجب أن يقال .

وطلب منى إخوانى أن أرد عليه فأعلنت أننى لن أتدخل فى السياسة بحال ، وذلك هو ما قصد إليه الرئيس فى براعة ودهاء ثم تحدثت عن دخول الإسلام فى هذه المناطق وذلك بمناسبة شهر رمضان المبارك . وانتقلت إلى الكلام عن الحضارة الإسلامية وهى حضارة إنسانية بسطت رواقها على المشرق والمغرب وأثرت فى التاريخ العام تأثيراً بعيداً .

وقد لقيت الكلمة قبولاً حسناً من الحاضرين فكانوا يضجون بالتصفيق وعلامات الاستحسان ، وكانوا ينقلونها إلى أهل الجنوب من أبناء القبائل فيستخفهم الفرح فيرقصون فى خفة ورشاقة .

وتركت الكلمة أثراً بعيداً فى النفوس ، وكان عملاء القائم بأعمال المديرية ينقلون إليه الكلام أولا فأولا ، فضاق بهذا الأسلوب الذى دخلنا به إلى النفوس عن طريق الإنسانية ولم نمس به الأمور السياسية من قريب أو بعيد .

وقد شجعت الكلمة أعضاء النادى فطلبوا إلينا أن نزودهم بالكتب والمؤلفات المصرية الحديثة والقديمة وكذلك بالمجلات والصحف اليومية والنشرات الدورية إذ أنهم يعيشون فى ظلام والعالم كله فى نور . وقد أضافوا إلى ما تقدم أنهم يرجون أن تعمل مصر على تقوية محطة الإذاعة اللاسلكية حتى تصل إليهم الحركة الفكرية والفنية التى حرموا منها فى هذه المناطق النائية .

فى أحضان الطبيعة

كان حديث الناس لا ينقطع عن الكلمة وقد استغرقت ساعتين إلا قليلا ، وبدأ السكان يصلون إلى الفندق منذ الصباح يؤكدون صداقتهم ويعلنون ارتياحهم إلى سلوك أعضاء البعثة وقد أثارت هذه الحركة نفوس الموظفين الإنجليز فاستدعانا القائم بأعمال المديرية وهو إنجليزى من أصل فرنساوى ويقيم فى مبنى قديم كان تفتيشاً للرى المصرى فيما ذهب من أيام . وقد أقام هذا المبنى المهندسون المصريون ورفعته السواعد المصرية ولم تنل منه الأيام والسنون .

وتحدثنا فى كل شيء إلا فى السياسة وكان مشوقاً لأن يكشف عن غاية البعثة ونحن نراوغه ونعابثه ثم اضطر هو لأن يفتح باب الجدل السياسى فكان مؤتمراً سياسياً عظيماً ، وكلما أحس لوناً من الإحراج تنصل من الإجابة وقال إن هذه هى تعليمات الخرطوم ونحن موظفون ننفذ التعليمات التى تصدر إلينا بدقة وإخلاص . وزاد على ذلك بأن الموظف المخلص هو فى

الواقع آلة يديرها الرأس المدبر .

وجوبا مسرح للأديان الوثنية والمسيحية والإسلامية. وفيها مسجد رائع أقامته الجمعية الزراعية المصرية يؤمه المسلمون، ويبذل رجال الإرساليات المسيحية جهوداً متصلة فى سبيل نشر الدعوة بين قبائل وثنية يحكمهم قانونان فى الواقع . قانون الغابة فيما يتصل برقيق الحياة والقانون الإنجليزى فيما يتعلق بأمهات المسائل .

وقمنا بجولة فى المدينة ورأينا فى طرقاتها حياة الفطرة وحياة المدنية المهذبة : العارى واللابس ، يسيران جنباً إلى جنب ، فى الطريق وفى المتجر وفى المزرعة وفى ديوان الحكومة وفى المقهى .

ويقبل الإنجليز على دراسة الرطانات المختلفة وهم يسيرون وفق القاعدة المعلومة إذ يعقدون امتحانات دورية فى اللغة العربية فى مستوى طلاب السنة التوجيهية فإذا اجتازها الموظف البريطانى منح مئة جنيه مكافأة له لقاء ما بذل فى التحصيل ومنح علاوة شهرية قدرها عشرة جنيهات . وإذا اجتاز الامتحان فى إحدى اللهجات الثلاث منح عن كل رطانة خمسين جنيهاً وعلاوة شهرية قدرها خمسة جنيهات . وقد وضعوا لهذا الغرض ثلاثة قواميس بالأحرف اللاتينية عن كل رطانة ؛ وبذلك يستطيع الموظف

أن يتفاهم مع أبناء القبائل من غير حاجة إلى مترجم .

وأبناء القبائل لطاف يميلون إلى المرح والطرب غير أنهم يصبحون خطراً ملحوظاً إذا أمعنوا فى الشراب فهم يهاجمون المارة ويقذفونهم بالطوب والحجارة والأجسام الراضة فى جنون وأكثر الأحكام التى تصدر عليهم نتيجة لهذه الحالة . على أنهم يسرفون فى الشراب على صورة كبيرة .

وهم فى الواقع قطعة من الطبيعة السخية تربطهم بحياة الغابة وشائج قوية فلا يتأثرون بمظاهر المدنية المهذبة حتى ولو خرجوا عن وثنيتهم إلى غيرها من الأديان المنزلة . والميزة الوحيدة أن ليس بينهم يهود ؛ والذى يسلم منهم أو يتنصر ينقلب وثنياً عند ما يدخل الغابة ويقيم بين أهله وعشيرته فلا هم يحاجّونه فى دينه ولا هو يحاول التأثير فى عقيدتهم التى ولد عليها وشب .

ومستوى الجمال بينهم مرتفع وإن كان القبح بين عدد غير قليل منهم ملحوظاً . وهم يتزوجون بأكثر من واحدة . ويدفع الرجل مهره بقرة أو أكثر وفقاً للحالة الاجتماعية التى عليها الزوج أو أهلها ، وقد يصل المهر بضع عشرات من البقر . ولما أرادت هيئات التبشير أن تثنى الذين تنصروا عن تعدد

الزوجات وجدوا منهم انصرافاً عن المسيحية فأباحوا لهم حق تعدد الزوجات . وأنشأ المبشرون أكثر من مدرسة يتلقن فيها الطلاب نوعاً من العلوم المدنية وخاصة الصناعات اليدوية إلى جانب الدين المسيحى .

وأنشأ المسلمون « خلاوى » على نظام الكتاتيب القديمة المعروفة فى ريف مصر يلقن فيها التلاميذ نوعاً من العلوم المدنية إلى جانب الدين الإسلامى . ولا تعرف الأديان تعصباً وإنما يمضى كل دين إلى غايته فى هدوء وروية ويؤدى واجبه نحو هؤلاء الناس فى إخلاص وصبر .

ولهؤلاء الناس أهازيج أدبية يتغنون بها فى أوقات السرور أو الحزن ، وهى موروثة عن الأجيال المتعاقبة . ولهم حياة اجتماعية خاصة بهم ، فهم يميلون إلى السمر وإلى الرقص وإلى الغناء فهم جزء متمم لهذه الطبيعة المنطلقة غير المحدودة .

يعمدون إلى النقر على الطبول عند غروب الشمس نقراً معيناً ينقله قارع الطبل إلى غيره حتى تصل دقات الطبول إلى الحلل البعيدة فى كبد الغابة فيخفون إلى الحلة الداعية ومعهم شرابهم وطعامهم حيث يلتفون فى حلقات راقصة يعرضون فيها ألوان الفن

من رقص ودقات طبل وغناء ، وقد اشترك الجنسان : الرجل والمرأة.

وقد يعجب واحد بواحدة ، أو واحدة بواحد فيدعوها أو تدعوه عند الفجر إلى الابتعاد عن هذا المجتمع بين الأدغال وتحت بواسق الشجر أو تحت ظلال كوة من النبات .

أما تزاوجهم فعن طريق البقر ، وتعيش الزوج أو الزوجات دون غيرة أو خصام وإنما يؤلفن حياة أسرة على الفطرة . ولا غضاضة فى أن يلمس أحدهم زوج آخر ولكن المرأة تخشى الاتصال بغير واحد من أبناء جلدتها فقد تنجب طفلا غير فاحم اللون إذ أنه لو حدث شيء من هذا للحق به العار مدى الحياة ، ولكن لن تترتب عليه أية عقوبة ولن يلحق بها جزاء .

ويرث الولد الأكبر جميع زوجات أبيه عدا أمه فيرثها أكبر إخوته غير الأشقاء . ويقوم الولد الأكبر بجميع الالتزامات التى التزم بها أبوه فى حياته .

وليس للزنا بينهم عقوبة وإنما للزوج أن يشكو زوجه إذا خانته مع آخر ؛ وفى هذه الحالة تجتمع المحكمة وتفرض الغرامة التى تراها وفى هذه الغرامة دلالة على رد شرف الزوج وتنتهى

المسألة عند هذا الحد ولا يترتب على فرض العقوبة « الغرامة » طلب الطلاق أو الانفصال .

وقد يصل مهر الزوج إلى ثمانين بقرة وهو فى الغالب الأعم خمس بقرات . ويمكن تقدير ثمن البقرة بسبعة جنيهات فى جنوب السودان .

وترعى الأبقار هائمة على وجهها فى أنحاء الأرض غير مملوكة لإنسان ؛ فلا تسرق ولا يعتدى عليها . وللبقر شبه قداسة فلا تباع ولا تشترى وإنما ملك للأسرة ، ولا يستفاد بلبنها ولا تستخدم فى حرث أو أى عمل من الأعمال .

وإذا أصاب مسن غاية عمره أو لحق بإنسان مرض حملوه إلى مكان بعيد إلى أن يلقى حتفه فتنتهى حياته هادئة كما بدأت هادئة. وكثيراً ما يختارون المستنقعات لتكون مقراً لهؤلاء المرضى أو المسنين ، فإن شفى المريض عاد إلى قومه فاستقبل بالحفاوة ومظاهر الأفراح . وإذا نفقت بقرة هرعوا إلى لحمها يأكلونه وأخذ الرجال يصبغون أجسادهم بدمها وهو نوع من الزينة كما تتزين المرأة المتمدنة فى حياتنا العامة .

ويعنى الرجال بزينتهم أكثر من النساء ؛ وتفضل المرأة قص شعرها حتى تسير بدون شعر فى حين أن الرجل يتركه ثم

يقصه على هيئة ريش الطير ويمشى بين الناس مختالاً فخوراً وقد أعجبته زينته .

ولهم تأملاتهم الخاصة إذ كثيراً ما رأينا أحدهم يقف فى مواجهة الشمس أو القمر بضع ساعات وقد سرح بخاطره وراء الغيب . . فيما يفكر أو فيما يتأمل ؟ ليس أحد يدرى ! ! وإنما يعيش لنفسه هذه اللحظات دون أن يقلقه إنسان أو يزعجه حيوان .

المدينة العائمة

إن الصورة السريعة التى رسمتها بريشة خاطفة لا يمكن أن تمثل الحقيقة التى يقع عليها زائر هذه المناطق أو مرتادها ، وإنما هى محاولة تقرب بين ما هو واقع وحادث وبين ما يقع فى ذهن الكاتب . وعلى أية حال إنها وجه من الوجوه يمثل طائفة من الزوايا .

وكانت أيامنا فى الجنوب معدودة ولكنها أيام تركت ألواناً من الانطباعات القوية العميقة . وتركنا جوبا وكل شبر من الأرض يحتاج إلى فصل مستقل ، وكل كائن حى فى هذه المناطق النائية يحتاج إلى كتاب مفصل .

وقصدنا إلى شاطىء النهر حيث كان فى انتظارنا مركب بخارى هو « دار فور » ، وقد عشنا فيه زهاء ثلاثة أسابيع لا يمكن أن تدخل فى حساب العمر أو تقوم فى حياة الإنسان بل كانت فترة حالمة تنسى الإنسان كثيراً من همه وألمه ، وبعثت فى النفوس الراحة الكبرى . وتتألف من الباخرة ويقيم فيها عدد

من الملاحين والعمال وبها عدد من الأسرة استقل بها ثلاثة من الزملاء وبعض الموظفين ، والحق بها من الأمام صندل به غرفة نوم وقاعة للاستقبال وفرندة واسعة فى الصدر ودورة مياه مستقلة وكان حظى أن أستقل بهذا الصندل . وألحق بالمركب من اليسار صندل آخر به سريران للنوم وغرفة استقبال ونزل به اثنان من الزملاء . وكان رائد الرحلة من جنوب السودان إلى شماله أحد موظفى الرى المصرى وهو شاب حديث التخرج ، حانق على الأوضاع السياسية فى القاهرة وفى لندن وفى الخرطوم . . عميق الفهم فلا يكتفى بالنظرة الخاطفة وإنما يصل بين الشيئين بل الأشياء إلى أن يقع على الحقيقة الدامغة . وهو موسوعة طيبة فقد عاش فى الجنوب زهاء ستة أعوام وقطع المسافات البعيدة على قدميه ووقف على كثير من الحقائق التاريخية والحياة القبلية فى تلك الأصقاع .

والذى يؤلم فيه حقاً أنه يضغط أعصابه ويكبت مشاعره لأن السلطة المهيمنة هى سلطة احتلال لا تتفق ونزعات رجل وطنى يغار على طنه وأبناء بلده . وقد كنا نعقد الجلسات فى الأمسيات ونحن نتحدث فى شتى الأمور والشؤون ومختلف المسائل والموضوعات .

وقد أحس راحة كبرى بمصاحبتنا فبدأ يكشف عن الكنوز المدفونة فى نفسه شيئاً فشيئاً ، وبدأ البركان الخامد يثور وهو يتكلم عن الحياة فى هذه البلاد . كان يتكلم ونحن نسمع وهو مرتب الذهن ، مقتصد فى التعبير يصل إلى النقطة عن أقصر خط مستقيم .

وجدت الفرصة الطيبة لأخلو إلى طائفة من الكتب والتقارير التى احتفظت بها فراجعتها إذ أن هذه الفرصة كانت نادرة . ثم نلتقى كلما أحسسنا شوقاً إلى الراحة من الأثقال على الأذهان حيث نتسامر أو نقطع الوقت بإثارة الذكريات القديمة والحديثة فى جو يسوده الحب والأخاء .

وأضفى « الريس » على الباخرة لوناً من المرح وخفة الدم وهو رجل عاش حياته على ظهر الباخرة « دارفور » فهى جزء من حياته وهو جزء من تاريخها . وأخذ يحدثنا عن الكبار الذين أقاموا معه على ظهر « دارفور » حديثاً طليًّا لذيذاً . يصدر أمره إلى الملاحين فى حزم وعزم ويصدر تعليماته إلى المسافرين بنفس الروح التى يعامل بها مرؤوسيه دون أن يجد أحدنا غضاضة فى تنفيذ الأمر أو التعليمات . وقد حمل الصندل الأمامى ثلاث

سيارات خصصت للأعضاء ينتقلون عليها من مكان إلى مكان عند ما يرسو « دارفور » .

وتمضى الباخرة فى وسط النهر فى هدوء وأمن واستقرار ، وكلما قربت من الساحل هرع إليها لفيف من أبناء القبائل القاطنة على ضفتى النهر وهم يمدون أيديهم إلينا ويديرون فى أفواههم كلمات لا نتبينها وإنما نسرع بتموينهم بعلب الصفيح الفارغة أو جزء من الطعام أو العقود فتتهلل وجوههم وترتاح نفوسهم .

ومما عجبنا له أن هؤلاء الجنوبيين غير راغبين فى العمل وهم يقبلون عليه إذا ما أرهقتهم الحاجة أو ضغط عليهم المفتش الإنجليزى . وتدفع حكومة الجنوب لهم أجراً يومياً قدره ثلاثة قروش ؛ أما تفتيش الرى المصرى فيدفع للعارى خمسة قروش وللابس ثمانية وذلك ترغيباً لهم فى ستر عوراتهم . وهم على الرغم من ذلك يفضلون العمل عراة بثلاثة قروش على ستر عورتهم بثمانية .

وقد قابلت رجلا أيرلنديًّا فى الجنوب وكان يعد العدة للسفر إلى بلاده فى إجازة الصيف وهو يتوقع عدم تجديد عقده مرة

ثانية . وقد ذكر لى أنه مفتش بوزارة التربية والتعليم وأنه وضع تقريراً كان مثار الغضب فى لندن وفى الدوائر البريطانية فى الخرطوم . وقام تقريره على أن تقدم جنوب السودان لا يمكن أن يتم ألا بنشر اللغة العربية بين السكان والاستعانة بعدد من الإخصائيين الاجتماعيين الذين يمكنهم وفق طبيعة فهم أن يؤثروا فى هؤلاء المواطنين . ولا بد من إدخال العناصر المصرية المنتجة فى هذه البلاد وبذلك يبدأ لقاح شعب جديد يستطيع الإنتاج واستخدام الأرض . ووعدنى مستر « مدوز » أن يكتب إلىّ فى القاهرة إذا ما عاد إلى السودان . . مضت الأعوام ولم أتلق من الرجل كتاباً ما ! لعله حتى اليوم فى بلاده .

ويفخر « مدوز » بأنه قد استطاع التأثير فى دوائر التعليم المنصفة وذلك بإدخال اللغة العربية فى مدارس الجنوب . ويقول إن إدخال هذه اللغة هو المفتاح الأول الذى يديره الجنوبيون فى سبيل النور والعلم وإن أثر ذلك لن يتضح إلا بعد بضع سنين . وأكد لى أن الجنوبيين قد أفادوا كثيراً من إدخال اللغة العربية على برامج التعليم وذلك للتزاوج القائم بين مفرداتها وبين مفردات الرطانات المتعددة التى تعيش على جنبات النهر .

وضرب الرجل مثلا بأحد القضاة الشرعيين وهو يعمل فى جنوب السودان وإن كان من شمال السودان إذ أنه أنشأ عدة « خلاوى » أقبل عليها أهل الجنوب ووجدوا فى الإسلام مزاجاً قريباً يتفق وحياتهم الطبيعية . وقد وصل هذا القاضى إلى منصب وزير العدل فى أول حكومة بعد الاتفاقية المصرية .

وفى اعتقاد هذا الرجل الإيرلندى أن أهل الجنوب قوم مطبوعون على الفن والتقدم ، وأن فيهم أصالة مصرية تمتد إلى عهود فرعونية قديمة . غير أن حكام الأقاليم هناك لا يرغبون فى أن يتقدم هؤلاء الناس على أية حال وإنما من مصلحة الاستعمار أن يظلوا كذلك .

هل لهؤلاء الناس وعى سياسى ؟

لا ريب فى أن لهم وعياً سياسياً . غير أنهم يقسرون على العيش فى حدود ضيقة ، وكلما أرادوا الانتقال إلى معالم الحضارة ضغطتهم سلطة الحاكم وألقت بهم بين الغابات والأدغال

ارتكب فى أحضان عام ١٩٣٠ أحد سكان الجنوب مخالفة فوقع عليه المفتش البريطانى غرامة . وأصر المفتش على أن يحصل الغرامة من بيع بقرته ، فهرع الرجل إليه يسأله العفو عن

التحصيل عن طريق بيع بقرته . ولكن المفتش أصر ، فقدم الرجل للمفتش عدداً من أولاده لقاء البقرة ولكن المفتش أمعن فى البيع . وحاول الرجل بشتى الوسائل ثنيه عن غايته دون جدوى.

فلما ضاق به الأمر ورأى المفتش يقصد إلى بقرته ليأخذها إلى مركز البوليس انتزع سهمه وصوبه إلى صدر المفتش فأرداه قتيلا . وفى نصف ساعة كان النبأ قد انتشر فى عشرات الأميال التى تشغلها القبيلة . وهاجت السلطة المحلية لهذا الاعتداء الفظيع.

كيف يجرؤ أحد من أهل الجنوب على قتل المفتش الإنجليزى ؟

وثارت ثائرة الخرطوم فوجهت عدداً من الطائرات التى ألقت بحمولتها المدمرة على هذه المناطق وقد نالت الطائرات من الحلل وهى مقامة من نبات البردى ولم تستطع أن تنال من السكان الذين فروا من هذه الحمولة القاتلة المدمرة . وقضت على كثير من الماشية وهشمت كثيراً من الأشجار . وكان لهذا الحادث أثر بعيد فى نفوس فريق من أعضاء مجلس العموم الذين هاجوا لهذا الإجراء الوحشى الفظيع ووصفوه بأنه نقطة سوداء فى تاريخ بريطانيا .

وأطبقت الخرطوم فمها على هذا الحادث ، وشغلها أمر آخر كيف استطاع هؤلاء نشر النبأ على هذه الصورة السريعة ؟ وكيف أمكنهم اتقاء الغارة ففروا إلى خارج الأجمات ؟

ولما أعيت السلطة الحاكمة الحيل لجأت إلى إغراء ذوى الضمائر الميتة بالمال وبالهدايا فوقفت منهم على السر الرهيب ! !

فى السودان الجنوبى نوع من الشجر ، إذا طرقه الإنسان بأنامله أحدث موجات تسرى مع الأثير وترتفع قليلا قليلا ثم تموت بعد مسافة معينة . وهم ينقرون عليها بلمسات أصابعهم كما يفعل العامل المختص بإرسال البرقيات ، ويتلقى الرموز واحد ينقلها من شجرة إلى شجرة ثم يعلن النبأ بين السكان . . وهكذا تمت المسألة .

وما كاد المفتشون يعلمون هذا حتى أصدروا الأوامر باقتلاع هذا النوع من الأشجار وقضوا عليه من الجنوب .

هذه صورة لحادثة وقعت ثم طواها تاريخ الاستعمار البريطانى ولم يعد يذكرها أحد من المعايشين وهى تدلنا على الروح التى يحتفظ بها أهل الجنوب غير أنهم لم يجدوا الفرصة المواتية التى يعلنون بها رغبتهم فى حياة الحرية التامة .

وتمكن عدد محدود من الجنوبيين من التسلل إلى الشمال ثم وصلوا إلى مصر حيث التحقوا بالجامعة الأزهرية وقد قابلنا واحد منهم وقد ارتدى جلباباً أبيض وأخذ يرحب بنا وذكر لنا أنه قد حضر لزيارة أهله بعد بضع سنين غير أن المفتش الإنجليزى قد أجبر « السلطان » وهو حاكم محلى بعدم الترخيص له بالعودة إلى مصر . وذكر لنا أنه قد حيل بينه وبين ممارسة أى عمل أو القيام بأية دعوة فهو يعيش بين عشيرته كما يعيش الملك المعتقل أو المسجون .

الحياة الراقصة

كانت الباخرة دارفور تتهادى فوق صفحة الماء الهادئ ، لا يعكر صفوها همس ريح ولا اضطراب موج ونحن نسمع بين الفينة والفينة صوت « الريس » وهو يمزق أحشاء السكون فى الليل وفى النهار على السواء . أنها تمضى فى سبيلها صوب الشمال وقد خلت دنيانا من الضجيج والعجيج ، فلا مظاهر للحركة ولا أثر لما يعرفه الناس فى الحياة المدنية التى نمارسها فى الريف وفى الحضر فالسكون الدائم الشامل هو كل شىء ؛ غير أننا فوجئنا ذات مرة بأمر صارم من الريس يطلب إلى رجاله أن ينحرفوا بالباخرة إلى جدار الشاطئ الغربى ، وألقت الباخرة مرساها فى هدوء وأمن .

وسألناه عن السبب الذى دعاه إلى اتخاذ هذا الإجراء فرد علينا بأنه يشم رائحة « تلقيحة » تقبل من ناحية الشرق وقال إنها قد تهاجمنا بعد ثلاث ساعات على الأكثر . وشغلنا الفضول سعياً وراء معرفة هذه « التلقيحة » فإذا بها عاصفة من الريح الصرصر

تقتلع الأشجار وتحطم الكثير من الأشياء التى تصادفها فى طريقها . وقبل أن ينقضى الموعد المضروب أقبلت عاصفة حمقاء حملت ذرات الرمل حتى أحالت الدنيا شبه ظلام وزكمت الأنوف بريحة نكراء ومضت بعد حين قليل واستأنفنا السير .

وما كدنا نسير نصف ساعة حتى فوجئنا بحدث جديد ، فقد صدرت التعليمات من « الريس » وارتفعت أصوات البحارة وخرجنا إلى سطح « دارفور » ووقفنا إلى جانب برج المراقبة فوجدنا الباخرة تحاصر تمساحاً كبيراً بين جدارها وبين الشاطىء وقد أخذ البحارة يعملون فيه المجسات الخشبية إلى أن أزهقوا أنفاسه ثم أخرجوه وسلخوه .

على أن هذه المتاعب زالت ونحن نرى قطعان الفيلة وهى تسير فى مجموعة بلغت ثمانين فيلا وبضعة أفيال . وأخذت تشكل مجموعات رياضية فى حركات خفيفة وكأنها راقصات الباليه فوق خشبة المسرح . وأدت طائفة من الألعاب الرياضية من قفز وسير وانبطاح وتشابك بالخراطيم ؛ ثم انقلبت إلى حركات عسكرية بين كروفر وبين هجوم ودفاع .

أما أسراب الغزلان فقد كانت تترى بين الحين والحين وهى

تجفل من أصوات محرك السيارة ، وهى بين الأمن والذعر أقرب إلى الحالة الأولى من الثانية . وإذا ترك الكاتب نفسه وقلمه إلى أحاديث الناس عن حياة الجنوب لخرج إلى العالم بقصص وحقائق تملأ أكثر المكتبات عماراً بالمصنفات . وحياة القضاء فى القبيلة تدعو إلى الوقوف لحظات .

تترك السلطة مقاليد القضاء فى أيدى رجال القبيلة ومن حقها اختيار القضاة وتعيين كاتب الجلسة . وحكومتهم صالحة إلا إذا لم يرض أحد المتخاصمين بها فله أن يستأنف أمام المفتش وحكومة المفتش نهائية لا استئناف لها ؛ إلا فى الجنح والجنايات فإنها خاضعة للقضاء الحكومى .

ويتخذ القاضى القبلى مجلسه تحت شجرة وقد جلس فوق مقعد وإلى يساره كاتب من القبيلة يدون ملخصات بأقوال المتخاصمين والشهود للرجوع إليها فى حالة الطعن ؛ ويرفع القاضى عصاً طويلة تنتهى بشعبتين قصيرتين يمسكها الخصوم واحداً بعد الآخر . وما دامت العصا فى يد واحد لا يمكن مقاطعته أبداً بل يمضى فى الإدلاء بأقواله حتى إذا ما فرغ منها ألقى بالعصا إلى

الأرض فيلتقطها الآخر وهكذا . وشهادة الأطفال محترمة وشهادة النساء كذلك .

وتكاد جرائم القتل تكون معدومة . وقد يحدث أكثرها من الإدمان فى الشراب والاعتداء على أنفس الأبرياء ؛ وقل أن ترتكب جريمة للدفاع عن العرض وإنما قد يحدث أن يرتكب أحدهم هذه الجريمة إذا تنافس اثنان على خطبة واحدة فتفضل أحدهما على الآخر ؛ وهنا قد يرتكب المرفوض جريمة قتل .

وقد زرت غرفة الإعدام وهى غرفة ضيقة فى وسطها حفرة مبنية بالأسمنت وقريب من السقف حامل حديدى يعلق فيه المحكوم عليه بالإعدام ويكون واقفاً فوق قطعة من الخشب ثم تجذب الخشبة فيهبط الجسد إلى الحفرة ويشد الحبل على عنقه فيستقر فى الهاوية إلى أن يلفظ أنفاسه .

وطفت بالسجن وهو غرف واسعة تأوى المسجونين وفى نهايتها مكان للسقيا وفى قبالته دورة مياه ، وهى غرف صحية تدخلها الشمس ويتخللها الهواء وينام المسجونون فوق ألواح من الخشب. وتقوم المسجونات بطهى الطعام للمسجونين ، ويقوم المسجونون بأعمال مختلفة منها زراعة الحدائق أو الصناعات الخفيفة . ورأيت فى السجن واحدة مصابة بالجنون وهى على

جانب كبير من الجمال ودخلت السجن لأنها شربت خمراً حتى فقدت وعيها وأخذت تلقى المارة بالحجارة . وقد وضعت فى قيد حديدى يمكنها من التحرك فى دائرة ضيقة لا يتجاوز قطرها متراً .

ويرتدى المسجونون جميعاً – رجالا ونساء – الملابس البيضاء وهى نظيفة ويبدون فيها على نحو جميل . وهم يعملون بدون حراس ويؤدون عملهم فى أمن وهدوء إلى أن تنتهى العقوبة فيردون إلى ذوويهم دون أن يلحق بهم عار ، وتسلكهم الحياة اليومية فى سلكها العادى وهى دائماً حياة تميل إلى الطرب وتلتصق بمظاهر الطبيعة . . حياة راقصة أبداً فى الليل وفى النهار وهم يسخرون من الرجل الأبيض ولا يأمنونه .

وهم سعداء بحالة عريهم إذ أنهم يقولون إن الأمهات لم يلدن الأولاد بملابس وإنما يلدنهم عراة ، وما دام الجسد سليماً وليس فيه ما يعيب وجب أن يظل هكذا معرضاً للجمال . أما إذا كان فيه عيب وجب أن يحجب عيبه عن الناس . ولا بد إذن ، أن تكون أجساد البيض غير سليمة وهم من أجل ذلك يلجأون إلى الغطاء عن طريق الملابس . ولا يأمنون الرجل الأبيض إذ أن من شيمته الغدر فهو يقدم لهم الموت بأساليب مختلفة ؛ ولذلك تراهم

على جانب كبير من الحذر إذ يعتقدون أن الموت الكامن فى فوهة مسدسه وفى ساعة يده وفى قلمه الفضى .

وذكر لى قائمقام مديرية ملكال قصة طريفة فقال : وقع أحد الموظفين الإنجليز فى يد فريق من قبيلة لم يخرجوا إلى الحياة. وقد راعهم أنه يتحدث معهم برطانتهم فى يسر وغير مشقة . وقالوا له إذا أتيت الآن بمعجزة تركناك لحال سبيلك وآمنا بك فلا يعتدى عليك إنسان . ووقف الرجل نهباً للأفكار السوداء وأخذ يفكر فى وسيلة للنجاة عن طريق المعجزة التى طالبوه بها ؛ وهداه تفكيره إلى القداحة فأخرجها من جيبه وضغط عليها بأصبعه فظهرت نارها بين ظلام الليل . وهال الرجل منظر هؤلاء السود وهم يخرون على الأرض ساجدين ، وأقبل زعيمهم يقدم له فروض الولاء والطاعة .

واستغرق القائم بالأعمال فى ضحكه واستأنف حديثه قائلا : انصرف الموظف هادئاً ولكن ضميره أنبه فأراد أن يلقى عليهم درساً بأن القداحة ليست معجزة وإنما هى آلة تعمل وفق نظام معين . وما كاد يفتح فمه حتى فاجأه الزعيم بقوله : تريد أن تقول إن فى هذا الحق قطعة من القطن مغموسة بالبنزين وإن هناك

حجراً يحتك بفتيل فتشتعل القداحة .

فقال الموظف : نعم ! ! هذا ما أردته تماماً .

فرد عليه الزعيم : نحن نعلم ذلك ، وإنما المعجزة فى أنك ضغطت عليها مرة واحدة فاشتعلت لأول مرة وهذه هى معجزة القداحات .

ومن الجمال الراقص أن تدخل غابة فتلقاك أفواج القردة وقد ارتقت أعالى الأشجار وعلى وجوهها ابتسامات حلوة وديعة . دون إيذاء أو اعتداء . وقد ذكر لنا أحد الموظفين المصريين أن ذئباً دأب على الاعتداء على القرود فما كان من القردة إلا أن حاصروه ذات ليلة وفى يد كل منهم عصاه وأحاطوا به فى دائرة وهم يوسعونه ضرباً إلى أن مات . وقال الموظف لقد كنا نرقب الحالة من وراء خيامنا تحت ضوء القمر فلما مات بدأت القردة تقفز وتأتى بحركات رشيقة تبعث فى النفس البهجة وأخذت تتعانق وتتخاطب بلغاها وكأن كلا واحد منهم يهنىء الآخرين بهذا الانتصار .

ومن المناظر التى أحدثت فى النفس السرور ، رؤية القوارب التى يمخرون عليها عباب النهر ، وهى جذوع شجر

ضخم تجوف من النهاية إلى النهاية وتدبب من الطرفين ، وتعمق عند الوسط ثم يجلسون فيها وبأيديهم المقاذيف، ويمرق القارب فى النهر كأنه السهم حتى لتتصور أنه قارب بخارى يجرى فى سرعة سريعة وكأنك فى سباق تقليدى لأكسفورد ضد كامبردج .

ويعتمدون كذلك على غصون الشجر وهم يقطعون الأخوار أو القنوات . فى خفة ورشاقة ولا يلتفتون إلى البيض ويمضون إلى غاياتهم وعيون المتطفلين تلاحقهم .

الموارد البكر

لم يخل الجنوب من مدارس ؛ أقدمها ما أقامته الإرساليات المختلفة فقد قدمت خدمات تذكر فتشكر ، ثم مدارس أقامتها الحكومة المحلية فى حدود ضيقة ثم خلاوى تلحق بالمساجد ، ثم جاء فتح التعليم المصرى حيث عرف الجنوب لون التعليم الصحيح السليم . وقد يأخذك العجب وأنت تدخل المدرسة فيقع نظرك على زميلين على منضدة واحدة أحدهما لم يبلغ العاشرة والثانى جاوز العشرين . والغاية من التعليم هى شق مجالات النور أمام الحياة العقلية القبلية .

وقد وقع بصرى على شاب يرتدى جلباباً أبيض نظيفاً وقد وقف بين جماعة من الحفاة العراة ويتحدث إليهم وفى عينيه بريق جذاب وعلى شفتيه ابتسامة هادئة . وسألت عنه فعلمت أنه يتحدث إلى فريق من أسرته ومن عشيرته ، وأضاف محدثى أنه طالب بالأزهر الشريف . وقد حضر لقضاء إجازته السنوية غير أن المفتش الإنجليزى أوعز إلى سلطان القبيلة أن يحول بينه وبين

العودة إلى استئناف دراسته فى مصر . . والإنجليز فى هذه الحالة ينفذون أوامر السلاطين فإنها الأناجيل المنزلة . وأقبل الشاب علينا بروح مرحة وهمس فى أذنى قائلا : إنه فى انتظار الفرصة المواتية لابتداع وسيلة يفر بها من الجنوب إلى مصر ؛ وكل ما يخشاه أن ينزل المفتش العقاب الصارم على أهله وذويه .

وقد أغرانى هذا بمقابلة أحد السلاطين . وكان إلى جانبى طبيب إنجليزى فأغرق فى الضحك وقال : ليتك تمنيت ما هو أعز فإن أبواب السماء مفتوحة . وسار أمامى وسرت خلفه حتى وصلنا إلى الناحية الشمالية من المستشفى ووقفنا تحت شجرة باسقة قد جلس تحتها رجل ومعه سيدتان وثلاثة أطفال . وكان الرجل يرتدى سروالا قصيراً من اللون المعروف « بالكاكى » ويضع على رأسه قبعة .

ووقف أمامه دكتور « كلارك » الطبيب البريطانى وقال : هذا هو « عظمة السلطان » . . واحد من السلاطين ومعه زوجتان أحداهما لها طفل مريض بالمستشفى والثانية أحدث الزوجات . وهو سلطان مقلّ فى الزواج فلم يصل عدد زوجاته العشرين بعد ؛ وينام هنا تحت الشجرة إلى أن يشفى ولده .

ويحرص الحاكم العام – فى ذلك الحين – على أن يدعو السلاطين وزعماء القبائل والعشائر إلى حضور احتفال إنجلترة بعيد جلوس الملك أو الملكة كل سنة فى الخرطوم حيث يمنحون الخلع التذكارية أو يقدم إليهم الهدايا التى يعتز بها أهل الجنوب وهى عندهم دليل التكريم فى هذه المناسبة .

ويبذل الحاكم العام غاية الرقة فى سبيل مجاملتهم . وهم فى الحق قوم على ذكاء وخفة روح وفهم لطبائع الحياة المحدودة التى يعيشون فيها . ويرفعون رغباتهم إلى الحاكم العام فى أسلوب شيق وجذاب . ولنضرب لذلك مثلين .

المثل الأول يتلخص فى أن أحد المفتشين الإنجليز قد أسرف فى الغلظة وقسوة المعاملة حتى ضاق به السكان وعجزوا عن رفع شكواهم إلى المسؤولين فى الخرطوم .

والمثل الثانى يتلخص فى أن أحد المفتشين الإنجليز قد أسرف فى اغتصاب الفتيات اللائى ألحقهن بمسكنه وعاش معهم عيشة « الحريم » . وقد ضاق السكان بهذه الحياة المبتذلة الرخيصة .

وانتظروا على مضض إلى أن جاء يوم الاحتفال السنوى وأخذ الحاكم العام يرحب بكل منهم ويسألهم عن الحالة وعما إذا

كانت لهم شكاية . وقد تحدث رجال العشيرة الأولى فقالوا : إن المفتش الإنجليزى رجل طيب على غاية من الأخلاق والتضحية وأنه فى سبيل خدمتهم أطال مدة إقامته دون أن ينال يوماً واحداً إجازة ؛ وهو يؤثرنا على حبه لأمه فى لندن، وتلك تضحية محمودة.

وقد فهم الحاكم العام التورية القاسية فأصدر أمره بنقل المفتش إلى عمل آخر ، توطئة لإعفائه من خدمة الحكومة السودانية.

وجاء دور الفريق الثانى ، وما كاد يسألهم عن الحالة حتى أجابوه بأنهم سعداء ، وأن المفتش الإنجليزى رجل لطيف يحبهم بكل قلبه ، ويبذل من أجلهم كل ما يستطيع وأنهم يبادلونه حبًّا بحب، وقد قرروا أن يختاروا له زوجاً من قبيلتهم، ما دامت زوجه تقيم بعيداً عنه فى لندن .

وفهم الحاكم العام المرمى الذى قصدوا إليه فأصدر أمره بنقل هذا المفتش إلى عمل آخر توطئة لإعفائه من خدمة الحكومة السودانية .

هذه هى الموارد البكر فى العقلية البدائية، موارد يعرفون طرائق استغلالها فى سبيل مقاومة الضغوط الاحتلالية وهى وسائل تنتج الثمرات التى يرجونها وتحقق آمالهم . وهم لا يلجأون إلى الشدة أو

العناد وإنما يتذرعون بالصبر حتى تحين الفرصة فيصلون إلى الغرض عن أرق طريق وأظرف وسيلة .

ويفيض الجنوب بموارد مادية ، يمكن أن تواجه حاجات أعداد موفورة من الإنسانية العامة . ولكنها موارد مطمورة تحت العين والسمع ، تحكمها الحكومة الإنجليزية بالإخفاء وإلقاء ظلال من النسيان عليها حتى لا تخرج إلى حيز الوجود . وهو إصرار عجيب من جانب إنجلترة يدور فى محور سياسة بعيدة المدى تتم بين لندن وبين الخرطوم فى قنوات دقيقة ، وهى أصل من أصول السياسة الاستعمارية التى يحتفظ بها سراً بين التوجيه العام بلندن والتنفيذ المحكم بالخرطوم .

وقد سمعت من أحد كبار الإنجليز فى الجنوب حديثاً ممتعاً عن الأيام الرهيبة التى سادت جنوب السودان فى الحرب العالمية الثانية . ذلك أن الأوامر قد صدرت بترحيل النساء الإنجليزيات إلى إنجلترة والهند . وأن يظل الموظفون وحدهم . ثم انقطعت الأخبار وكانت همزة الوصل بين الإنجليز والعالم الخارجى هى الإذاعة إذ انقطعت المراسلات وكذلك انعدم وصول الصحف والمجلات .

وقال محدثى : تناولت العشاء ثم جلست أمام الراديو فإذا بى أسمع أن إنجلترة لا تملك من القوات فى السودان الجنوبى سوى ألف جندى بريطانى ، لو وزعوا على أمياله المربعة لكان نصيب كل واحد منهم حماية عشرة أميال مربعة . وأخذ يعدد هذا الراديو — وهو ينقل الكلام عن الإذاعة اللاسلكية البريطانية — عدد القوات الإيطالية المقيمة فى الحبشة ؛ وكانت هذه القوات قد بدأت تتحرك من الحبشة ودخلت الأراضى السودانية وتوغلت فيها.

وأضاف محدثى إلى هذا أن هذه حقيقة يعلمها الإنجليز المقيمون فى السودان . وقد انخلع قلبى لهذه المفاجأة واتصلت تليفونيًّا بجميع الإنجليز فإذا بهم فى ذعر وجزع فقد سمعوا إذاعة بلادهم وهى تصف خطورة الحالة . . وقد اضطر هؤلاء إلى عقد اجتماع يدرسون فيه حالتهم إذا ما وقع السودان فى يد الجيوش الإيطالية الجرارة . وقد انتهى الرأى فى هذا الاجتماع إلى أن المسؤولين فى لندن قد رأوا التمهيد لسقوط السودان على هذه الصورة . وقررنا مغادرة السودان بطريق الجو إلى أقرب موقع للحلفاء دون الرجوع إلى الخرطوم أو لندن .

واستأنف القول وقد علت شفتيه ابتسامة عريضة : ومن

عجب أن الجيوش الإيطالية الجرارة قد وقفت زحفها على أثر سماع هذه الإذاعة إذ تخيلت أن هذه الإذاعة من جانب لندن هى بمثابة الكمين الذى أعد الجيوش الدوتشى . وبذلك أنقذ السودان من سقوط محقق . . لو تم لتغير مجرى الحرب العالمية الثانية .

وكانت القيادة العسكرية البريطانية قد أنشأت خطًّا للسكة الحديد فى جنوب السودان ، لتيسير وسائل النقل ولا سيما المواد الخام التى تحتاج إليها فى حالة الحرب. وقد أدى هذا الخط خدمات جليلة وأحدثت حركة عمرانية فرح لها الناس فى الجنوب .غير أنه ما كادت الجيوش الإيطالية تقف زحفها وما كادت الحرب تضع أوزارها حتى شرعت القيادة الحربية فى اقتلاع الخطوط الحديدية وتركت العوارض الخشبية « الفلنكات » للسكان يتدفأون بها فى الليالى القارصة البرد . . أما السر فى هذا فيرجع إلى أن السياسة البريطانية تقوم على إهمال هذه المساحات الشاسعة وهى جزء من السياسة العامة التى ترمى إلى إنشاء إمبراطورية سوداء تقوم مقام الإمبراطوريتين الفائتتين : البيضاء فى أمريكا والصفراء فى آسيا .

ومن السياسة كذلك أن إنجلترة لم تفكر فى إجراء بحوث خاصة بالزراعة فى السودان الجنوبى إلا بعد أن انتهت الحرب العالمية الثانية . فقد جندت عشرة من الخبراء فى شتى أنواع الزراعات وعهدت إليهم بدراسة هذا الموضوع واختارت لهم منطقة « جونجلى » وتقوم فى مديرية « ملاكال » . ومن عجب أن الحكومة المصرية تنفق على البحوث التى يجريها هؤلاء الخبراء وليس لها حق الوقوف على الخطوات التى تتم أولا فأولا وإنما عليها أن تنتظر النتائج العلمية الأخيرة .

أليس من حق التاريخ أن يسأل : أين كان المسؤولون منذ أن تآمروا على مصر وأخرجوها من السودان ؟ . . إن المادة الخام باقية تحت التربة لم تلمسها يد أبداً وذلك جزء متمم لنفس السياسة التقليدية العتيقة .

وهناك حقيقة أخرى ؛ هذه هى أن جماعة من الألمان قد زاروا السودان فى عام ١٩١٢ وأجروا أبحاثاً هامة فى منطقة السدود على نبات البردى للوقوف على مدى ما يمكن الاستفادة منه من هذا النبات فى صناعة الورق . وقد انتهوا إلى نتائج طيبة هى أن هذه المنطقة تستطيع أن تواجه ثلث حاجات العالم كله بالورق

المصقول ؛ وعلى هذا فقد أنشأوا مصنعاً، غير أن الحرب العالمية الأولى أدركتهم فاضطروا إلى مغادرة السودان ، وتهدم المصنع ولم تبق منه إلا جدرانه حتى اليوم . وقد كتبت فى هذا الموضوع أكثر من مرة غير أن الظروف لم تسمح بتحقيق إنشاء مثل هذا المصنع حتى اليوم .

مشارف الحقيقة

كانت أيامنا فى السودان أيام الأحلام الجميلة وأيام العمر السعيدة . . كل شبر فيه يدعو إلى إصدار كتاب . وكلما مضت بنا أيام العمر بدأت الذكريات تتفاعل فى النفوس والصدور والقلوب .

وكلما تركنا الجنوب وراءنا وأقبلنا صوب الشمال ، ونحن نمضى مع ماء النهر ، بدأت الحياة تتغير قليلا قليلا إذ أخذت مجالات روعة الجمال الساحر تغيب عن الأنظار ، وتخلد فى الذكريات ، وتحل محلها حياة أخرى رتيبة . بدأت حياة جديدة هى نفس الحياة التى نحياها ، فغابت عن الأعين « الحلل » – « القرى » – المقامة من البوص أو نبات البردى وبدأت المنازل المقامة من « الطوب الأخضر » – اللبن – وكأنها قرى الريف المصرى العتيد .

وغابت الرطانات ، وحل محلها إخواننا فى الشمال الذين يتحدثون اللغة العربية فى سلامة ووضوح .. أهلت مآذن المساجد ، وكذلك قباب الكنائس ؛ بدأت حركة الصراع حول المدينة النهمة والكفاح فى سبيل رغيف الخبز . ولاحت أنوار الحرية ومشاعلها مرفوعة فوق رأس كل مواطن . وانتهينا من التحفظ القاتل إلى الانطلاق الجميل ، وخرجنا من القيود الشديدة المضروبة من حولنا إلى عالم وطد العزم على الحرية والاستقلال .

وفى كل مكان حللنا به ، ابتداء من كوستى ، نحاط بمظاهر التكريم والحب ، فقد كانت أنباؤنا تسبقنا إلى الشمال . وكنا نقابل بالدعوات وبالدعاء ونحن فى فرح وابتهاج .. إن التعبير عن هذه المشاعر الإنسانية أمر يستعصى على القلم واللسان .

فقد ألقت الباخرة مرساها ذات ليلة فى النيل وعلى قرب من جزيرة « أبا » . وأنوارها تترسل عن بعد ثم أقبل علينا صوت كأنه قفيز النحل يهزم هذا الفضاء .. ثم علمنا أنهم سكان الجزيرة يحيون ليالى رمضان بالأهازيج الدينية والأناشيد ، ينقلها

الفضاء إلينا فى هذا الليل البهيم .

ثم وصلنا الخرطوم ، وقد خف إلينا إخواننا المصريون الذين يقيمون فى تفتيش الشجرة ، وهى معروفة بشجرة غردون فكان لقاء مؤثراً ، وراعنا منهم اغروراق أعينهم بالدمع فقد وقفوا على النجاح الذى أصبناه وعلى التوفيق الذى هيأه المولى سبحانه .

وانتقلنا إلى «الجراند أوتيل» ؛ وما كدنا نحل به حتى بدأت وفود من الخرطوم وأم درمان، أصدقاء وغير أصدقاء، وهم يرحبون بأول بعثة صحفية مصرية تدخل السودان . .

تساوى — حقًّا — فى الحفاوة بنا الاتصاليون والانفصاليون ، وتسابقوا فى التكريم ؛ وانتهزنا تلك الفرصة الطيبة فلم نترك محفلا إلا وزرناه ودارت الأحاديث المختلفة ونحن نعالج القضايا الكبرى بروح المؤمن بوطنه المتفانى فى عقيدته .

وفى أول ليلة ، ازدحم النادى المصرى بعشرات المئات من السودانيين والمصريين ، فى مقدمتهم رجال الجيش المصرى وتفتيش الرى المصرى ورجال التعليم المصرى . . ثم طبقات مختلفة من السودانيين الشباب ورجال المال والأعمال ؛ خفوا

سراعاً لاستقبال رسل الحرية وحملة الأقلام . ولعل الخرطوم لم تنس تلك الأيام فقد تجلت فيها العاطفة الصادقة وجوهر العائلة الواحدة التى تعيش فى وادى النيل .

على أن المعترك السياسى العنيف ، وبلجاجة الخصومة القائمة فى الخرطوم بين الانفصاليين والاتصاليين ، قد سكنت وفترت حدتها ، وتناسى القوم خلافاتهم ولم يفكروا إلا فى شىء واحد هو الالتفاف حول الفكرة العالية فكرة التخلص من نير الإنجليز لو سجلنا اليوم ما دار من أحاديث مع السيدين الكبيرين الميرغنى والمهدى لكنا فى موضع الذين يقولون « مادح نفسه يقرئك السلام » ولو سجلنا الأحاديث التى دارت بيننا وبين السيد إسماعيل الأزهرى وبين السيد عبد الله خليل وكان زعيم الجمعية التشريعية السابقة فى تلك الأيام لعلم التاريخ مدى ما أصابته البعثة من جهود .

وليس يخفى على الناس التقرير الذى رفعه أعضاء البعثة إلى كبير أمناء الملك السابق وقد تضمن حقائق خطيرة كانت سبباً فى غضب القصر ؛ ولا سيما المناقشة التى دارت بين كبير الأمناء وبين الأعضاء بسراى رأس التين . وكان الملك فى تلك الأثناء

يرتكب حماقاته فى أوربا .

ومن طرائف ما يروى أننا عند ما زرنا حديقة الحيوان بالخرطوم ، كنا نتصور أنها تفيض بأنواع الحيوان الأفريقى ولكننا دهشنا إذ رأيناها خالية الوفاض إلا من أسد عجوز كان موضع تندر وتفكه .

ومن الطرائف الجميلة أننى وقعت على كتاب وضعه أحد كبار الصحفيين الإنجليز وقد جعل عنوانه « أفريقية مهد الإمبراطورية البريطانية الثالثة » . وهو كتاب مصادر . . صادرته الحكومة الإنجليزية وأحرقت نسخه فقد تضمن من الحقائق الخطيرة الرهيبة ما يوضح السياسة السرية لإنجلترة فى أفريقية القارة العذراء . وقد اعتمد المحرر فيه على الوثائق السرية المحفوظة بوزارة الخارجية البريطانية وعلى القوانين الخاصة التى اشترعتها السلطات المحتلة للأصقاع الأفريقية وهى التى تفرق بين الرجل الأبيض والرجل الملون وعلى طائفة من التعليمات التى يصدرها الحكام فى هذه القارة لمعاونيه من البيض وعملائه من طبقات الموظفين . وخرج منه بحقيقة واحدة وهى أن إنجلترة تسعى إلى إبادة الجنس البشرى الأفريقى رغبة فى أن تكون أفريقيا

البكر العذراء ملكاً لهذه الإمبراطورية .

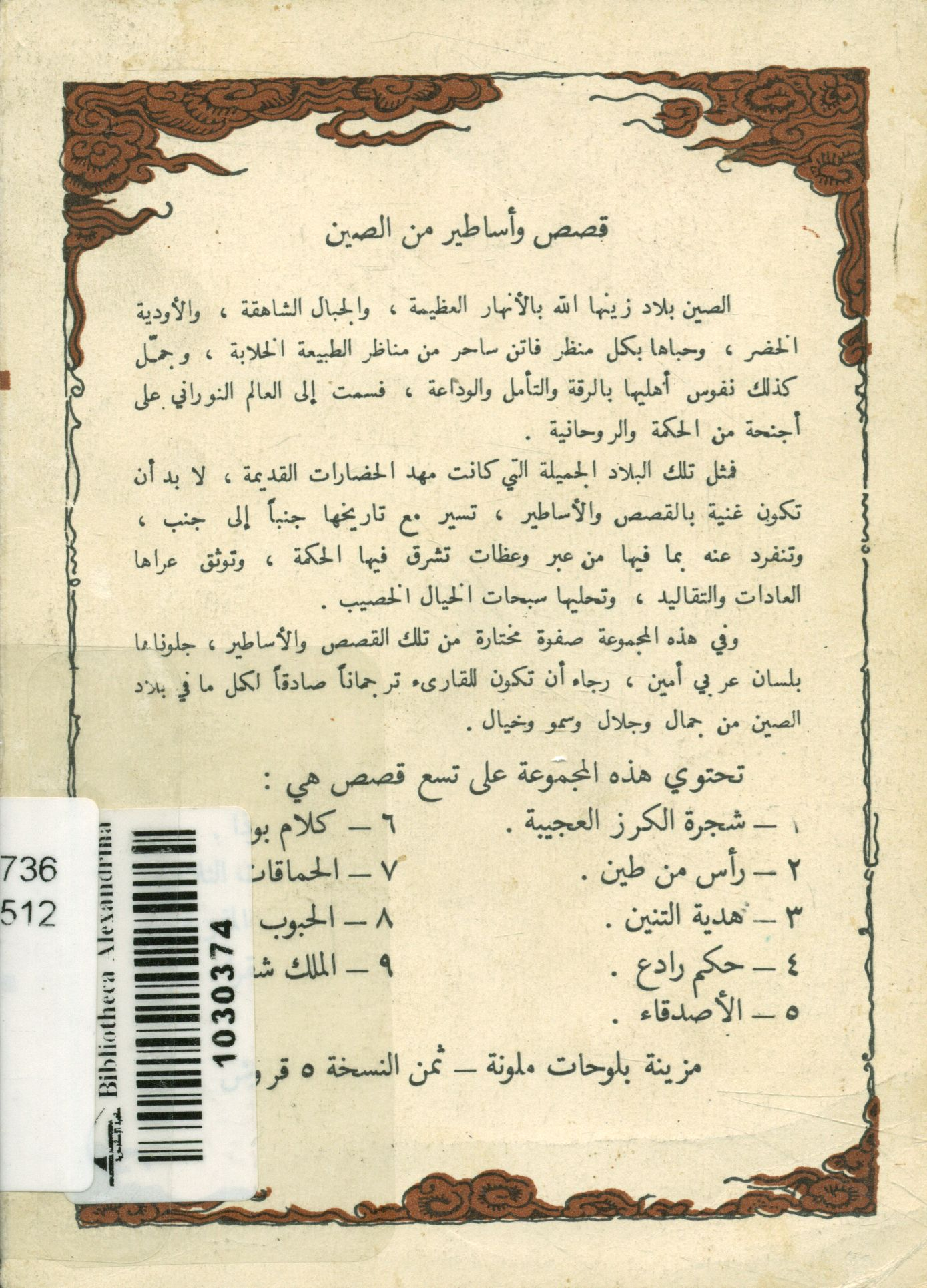
ونسيت السياسة السرية أن الوعى القومى فوق كل سياسة وأن أوتاد الاستعمار تدك فى كل بلد يوماً بعد يوم ، أو ساعة بعد ساعة . وأن عملاء هذه السياسة إلى زوال . . وأن أفريقيا البكر العذراء ستهتف دائمـاً فى كل ثانية « أفريقية للأفريقيين » .

ومن أعجب الأمور أن وزارة الخارجية المصرية فى ذلك الحين لم تكن تعلم شيئاً عن هذا الكتاب ، وقد صدر فى سنة ١٩٤٨ حتى قمت بتلخيصه فى صحيفة يومية وعند هذا تحركت وزارة الخارجية وأخذت تسعى إلى الحصول على نسخة منه وقامت بترجمته وقارنت بين الحقائق التى أوردها الكاتب وبين المعلومات التى تستقيها الوزارة من مصادرها المختلفة .

ولو تحدث الإنسان عن الاندماج القائم بين وادى النيل لرماه قوم بأن هذه المسألة تعبر عن شعور مصرى بحت . وهو شعور يقوم على الوحدة التى تفرضها الوشائج القوية المتينة بين السكان ، ولرماه آخرون بأنه مغرض فى الوصف وفى التقدير . غير أننى أورد هنا ملخص التقرير الذى رفعه مبعوث أمريكى

خاص أوفد لتحقيق هذه المسألة وأقام فترة من الزمن فى الخرطوم حيث طاف بأنحاء السودان وقابل المسؤولين الرسميين واتصل بشتى الأوساط وشتى الهيئات ومتباين الشخصيات . وخرج من هذا كله بحقيقة واقعة قال : إن الوحدة القائمة بين سكان وادى النيل هى وحدة فريدة فى التاريخ لا يمكن أن تنفصل إلا إذا فصلنا بين سكان أية ولاية أمريكية وبين نفس سكان هذه الولاية . ولا عبرة بالتقسيم الذى يقول به الموظفون البريطانيون بتقسيم السودان إلى شمالى وجنوبى ، ثم تقسيم الجنوب إلى جنوبيين والشمالى إلى شماليين . ومن خير الإنسانية أن يتم الاتحاد المطلق بين أبناء الوادى جميعاً فتقدم السودان وحضارته لا يتم إلا عن طريق السواعد المصرية البحت وإحداث حركة تهجير من الشمال إلى الجنوب وفتح المجال للحياة الطبيعية التى تتم عن التفاهم والتزاوج بين العناصر المنتجة . وأشار إلى أن السياسة الإنجليزية السرية ترمى إلى رفع السودان فى أحضان بريطانيا حيث تمده بالمال اللازم للمشروعات الكبرى والسودان بلد قصت أطرافه وقلمت أظافره وعملت السياسة على إفقاره . ولكن هذه السياسة تثير جوانب الخطر لأنها تقوم على التفرقة وإثارة

الفتن بين أبناء الوادى . ومن خير السلام العام أن تعين هيئة الأمم
هذا الوادى على المضى قدماً فى موكب الحضارة ورفعة
الإنسانية .



قصص وأساطير من الصين

الصين بلاد زينها الله بالأنهار العظيمة ، والجبال الشاهقة ، والأودية الخضر ، وحباها بكل منظر فاتن ساحر من مناظر الطبيعة الخلابة ، وجمّل كذلك نفوس أهليها بالرقة والتأمل والوداعة ، فسمت إلى العالم النوراني على أجنحة من الحكمة والروحانية .

فمثل تلك البلاد الجميلة التي كانت مهد الحضارات القديمة ، لا بد أن تكون غنية بالقصص والأساطير ، تسير مع تاريخها جنباً إلى جنب ، وتنفرد عنه بما فيها من عبر وعظات تشرق فيها الحكمة ، وتوثق عراها العادات والتقاليد ، وتحليها سبحات الخيال الخصيب .

وفي هذه المجموعة صفوة مختارة من تلك القصص والأساطير ، جلوناها بلسان عربي أمين ، رجاء أن تكون للقارىء ترجماناً صادقاً لكل ما في بلاد الصين من جمال وجلال وسمو وخيال .

تحتوي هذه المجموعة على تسع قصص هي :

١ ــ شجرة الكرز العجيبة .
٢ ــ رأس من طين .
٣ ــ هدية التنين .
٤ ــ حكم رادع .
٥ ــ الأصدقاء .
٦ ــ كلام بو
٧ ــ الحماقات
٨ ــ الحبوب
٩ ــ الملك ش

مزينة بلوحات ملونة ــ ثمن النسخة ٥ قرو